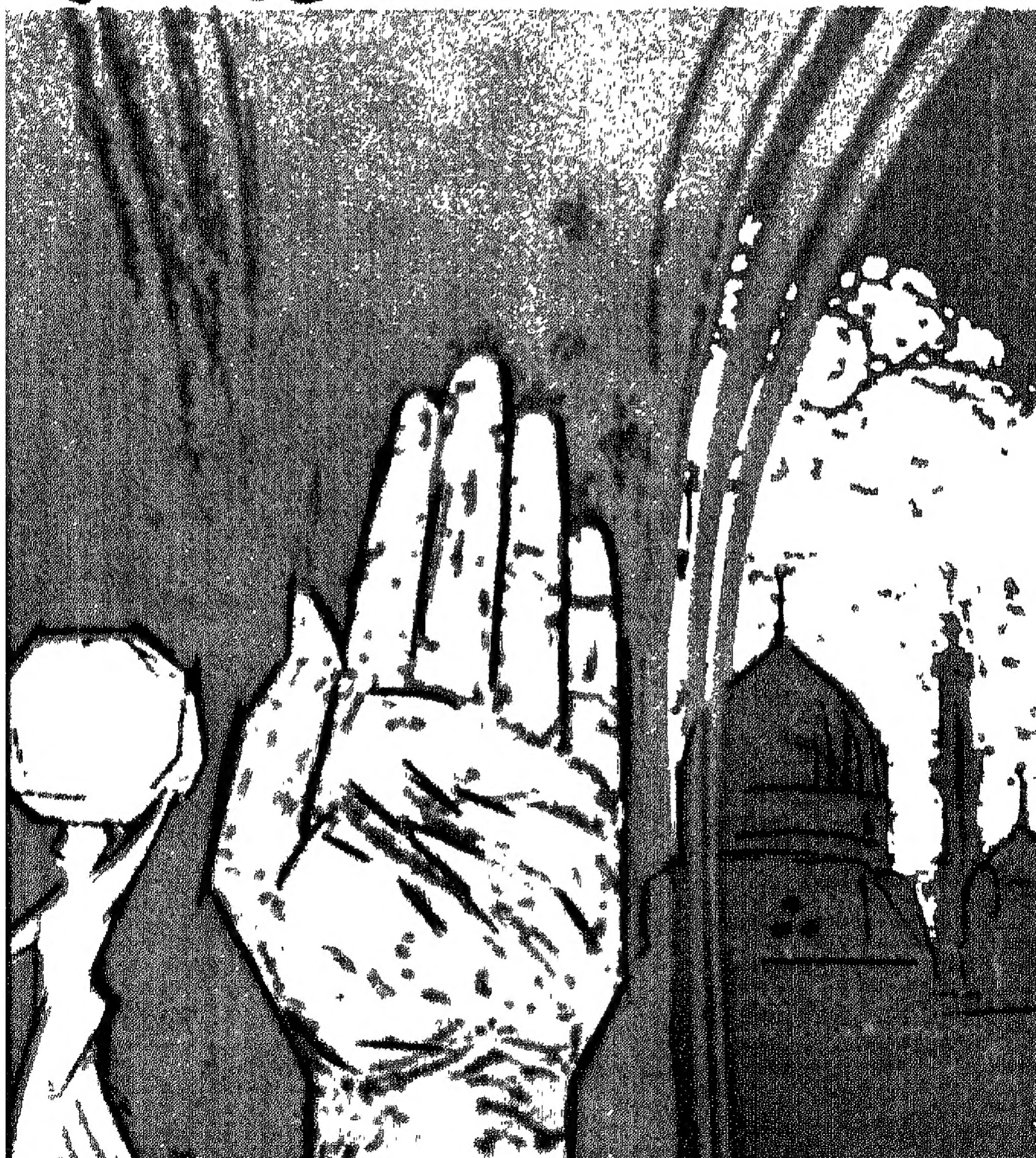
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

آراء حرة في الدين والحياة

فتحي رضوان



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٦ رمضان ١٣٨٩ ديسمبر ١٩٦٩

No, 226 - Décembre 1969

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهوريه العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

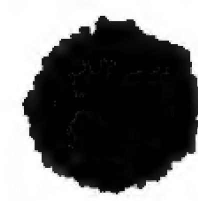
كتاب الهلال



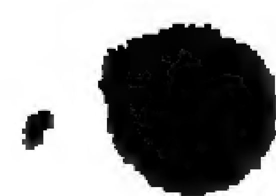
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف بريشـــة
الفنان جمال قطب

آراء حرة في الدين والحياة



بقلم
فتحي رضوان



دار الهلال

الدين ..

محمد رسول الله المشرع

- ١ -

وصف القرآن الكريم محمدا عليه صلوات الله وسلامه فقال : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم .» فدلت هذه الآية الكريمة على أن الرسول قد توافرت فيه كل صفات المشرع الذى يأتى تشريعه علاجا ناجحا لأدواء الجماعة ، ينفى عنها الضعف ، ويقيها شر الجمود ، ويبعث فيها خير فضائلها .

فالمشرع يجب أن يكون من الجماعة التى يشرع لها ، عارفا بخصائصها وفضائلها ، عالما بنقائصها ورذائلها ، واقفا على أسلوب حياتها ومداخلها ومخارجها ، مدركا لما تستجيب له ، وما تنفر منه . فالمشرع طبيب بيد أن الطبيب يعالج فردا أو عضوا فى فرد وواضع القانون يعالج عيبا فى أمة أى فى ملايين من البشر وقد يطول عمر القانون — حتى مع فساده — فيبقى مؤثرا فى حياة آلاف الملايين .

ودلت هذه الآية الكريمة على أن محمدا كان من العرب بعث لهم من أنفسهم ، وقد كان من أعرف العرب بالعرب . فان طول تأمله فى حياتهم قبل البعثة واضطراره الى العمل منذ صباه ، لفقره ويتمه ، الذى استفتح به حياته ، وانتسابه الى أمجد أحيام

العرب ، واعلاها مقاما ، واقدرها على تحمـــل تبعات القيادة والزعامة ، اطلعه من أمور العرب على شئونهم السياسية والاجتماعية . ثم جاء اشتغاله بالتجارة فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها ، قبل زواجه منها وبعده ، ورحلاته بين الحجاز والشام ، فزادته معرفة بأخلاق اهله وتقاليـــدهم ، ومشكلاتهم الاقتصـــادية والمعيشية .

ولا يكفى أن يكون المشرع من بنى قومه ، فلا بد له ليحالفه التوفيق ، فيما يشرع للناس ، أن تكون هموم الناس همومه ، ثم أن يكون طابعه الرفق والرحمة ، وأســلوبه الاتئاد والتريث . فما أكثر الذين يتصدون لعلاج مشكلات شعوبهم وهم لا يفهمون من تقويم المعوج ، الا كسره ، ومن اصلاح المخطىء الا هدمه ، ومن اقامة الفضيلة الا اشاعة الرعب ، وتوهم الخطأ فى كل شىء ، وتصيد العيب عند كل شخص . ولا بد للمشرع ليصلح تشريعه ، أن تبقى صلته بمن يشرع لهم حية ، وقد كان الرسول عليه صلوات الله يعيش مع الناس كواحد منهم ، يغسل ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويشارك أصحابه فيما يعملون ، ولو كان رفع التراب . ويكره أن يقوم أحد منهم عنه بنصيبه فى العمل ويقول : « علمت انكم تكفوننى ولـكن أكره أن أتميز عليكم » .

وكان يقول :

« من ولى من أمر الناس شيئا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة » .

واذا أردنا أن نوجز منهج رسول الله فى التشريع فى كلمات لقلنا :

أولا ــ كان يؤمن عليه صـــلاة الله وســـلامه ، بان

القانون وحده لا يصلح الأمة ولا يرد الشر ، ولا يهيىء الخير ، فسبيل ذلك عنده عليه أفضل الصلاة ، التربية القومية وقوامها الدعوة والقدوة . لذلك عاش الرسول وهو يدعو الى مكارم الاخلاق .

ثانيا ـ كان يؤمن بانه لا ضمان لحكم القانون ونفاذه الا يقظة الشعب وسهره وكرهه للظلم واخذه على يد الظالم ، وقد أوجز ذلك كله بقوله : « كما تكونوا يول عليكم » ثم قال : « اذا رايتم الظالم ولم تاخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » وقال : « اذا عجزت أمتى من أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها » .

ثالثا ـ كان سبيله فى التشريع الرفق وكان يقول : « ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لايعطى على العنف » ولذلك كان يكره تصيد الاخطاء ويقول : « انك ان اتبعت عورات المسلمين أفسـدتهم أو كدت تفسدهم » .

رابعا ـ كان يؤمن بان الأنسان لا القانون ، هو الذى يبسط أحكام الشريعة وينشر نورها، ومن ثم فان اختيار الرجل الصالح فريضـة على المسلمين وتخطى الرجل الافضل اساءة اليهم وقال : « ايما رجل استعمل رجلا على عشرة انفس علم أن فى العشرة أفضل مما استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » .

خامسا ـ كان الرسول يسمع لمـا يقوله المسلمون فيما نزل من الشرع وفيما لم ينزل ، فلا يزور عنهم ولا يضيق صدره بجدلهم وسؤالهم وفى سورة « المجادلة » صورة لأسلوبه هذا ، فقد جاءت خولة بنت ثعلبة وكان زوجها قد ظاهر منها أى طلقها طلاقا لا رجعة فيه ولم يكن قد نزل من القرآن شىء فى الظهار فاشتدت خوله

فى شكواها فنزل القرآن بالآية الكريمة : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير » .

- ٢ -

لا يكون الانسان مشرعا ناجحا ينتفع الناس بقوانينه ، فينصلح حالهم وتستقيم أمورهم ويسودهم الامن ، وينقطع بينهم الشقاق ، الا اذا كان هذا الانسان ـ كما قلنا ـ من أفراد الجماعة التى يشرع لها ويضع القوانين، ليعلم عيوب حياتهم وآفاتهم ومواطن قوتهم ، وحوافز غيرتهم ، وبواعث حماستهم وما يقبلون عليه ، وينصرفون منه ، وما يخيفهم ، وما يريحهم . ولا بد له أن يطوى صدره على الحب للجماعة التى يضع قوانينها ، وأن يكون اسلوبه الرفق والاتئاد ، وأن يكون بعيد النظر يعرف أخريات الامور من مقدماتها .

وقد كان محمد رسول الله مشرعا ، ولكنه لم يشرع للعرب وحدهم وانما شرع للانسانية كلها ، فكيف يتيسر لرجل أن يعرف الانسانية كلها ويحيط بنقائصها وخصائصها وبفضائلها ورذائلها وما تستجيب له وما تثور عليه . وكيف يستطيع قلب رجل واحد أن يحب الناس جميعا ، ويحنو عليهم ويجعل من أحزانهم وآلامهم ، وأحلامهم وآمالهم ، شغله الشاغل ، وهمه المقيم .

الحق ان ذلك أمر عسير .. نعم انه لأمر عسير أن تعرف الانسانية كلها فى مشارق الارض ومغاربها ، فى السهل والجبل ، وعند البر والبحر ، وفى الصحراء المجدبة والحقول المخصبة ، وفى مختلف الحقب

والعصور . وأشد منه عسرا أن تحب الناس وتفهمهم وفيهم الغليظ المتكبر ، والضعيف الخانع ، والصادق الامين ، والمرائى المشاء بنميم . ولكن محمدا رسول الله بعث ليكون رحمة مهداة للبشرية جمعاء ، وليكون رسول رب العالمين ، فقد واتاه الله بمعرفة الانسان ايا كان مكانه ، وأيا كان زمانه ، وبقدرة لا حدود لها ولا نطاق تقف عنده ، على حب الناس والتسامح والصبر عليهم مهما ساءت أعمالهم أو فسدت نواياهم .

كان محمد عليه الصلاة والسلام عالما بنفوس الناس فقد تربى فى مدرسة القرآن واختير لينشر تعاليمها ، ويبشر برسالتها ، ويرفع لواء دعوتها ، ولم تعرف الانسانية كتابا يحتفل بالانسان ويفصل صفاته وطباعه ، ويبين قوته وضعفه ، وايمانه وكفره ، وخيره وشره وهوطفل وصبى، وشاب ورجل، وكهل وشيخ وهرم، كما فعل القرآن الكريم ، لذلك كان الرسول عليه أفضل الصلوات لا يكف عن التحدث عن الانسان والى الانسان ويصدر فى كل احاديثه عن هذا المبدأ الكلى العام الذى جاء فى خطبة الوداع : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض فضل الا بالتقوى » .

وهذا المبدأ الكلى نابع من الاصل الاصيل الذى جاء فى القرآن الكريم : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وهو أصل يعرضه القرآن باكثر من أسلوب ، من ذلك قوله تعالى : « من قتل

نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل النـاس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

فالناس جميعا ممثلون فى أى فرد منهم مهما صغر شأنه وضعفت مكانته . ولقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام من حبه للناس جميعا فى اشد المواقف استثارة للغضب وتحريكا للـكره ونسيانا للروابط والعلائق ، ونعنى به موقف الحرب ففى هـذا الموقف كان دعاء الرسـول : « اللهم انا عبادك وهم عبادك نواصيـنا ونواصيهم ، بيدك اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » ففى موقف القتـال يذكر الرسـول ان الذين يناجزهم ويحاربهم ، هم أخوة وانه لا يحاربهم لـكره ، وانما من اجل غاية ومبدأ ، وقد أوصى عليه السلام احد صحابته ، وقد امره على احدى السرايا : لا تقاتلوهم حتى تدعوهم فان أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فان بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم هل الى خير من ذلك سبيل ؟..

فالحب أساس من أسس الدعوة المحمدية لذلك كان يقول : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » ، ويصف عليه السلام جماعة ما هم بأنبيـاء ولا شهداء ، يغبطهم الانبيـاء والشهداء ، يقول : « وهم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعـاطونها ، فوالله ان وجوههم النور وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .

ومن هنا كان فى مقدور محمد عليه الصلاة والسلام ان يشرع للانسانية كافة فى ضوء القرآن وعلى هديه . فقد كان انسانا أحب النـاس فعرفهم ، فعرف كيف يأخذ بيدهم ، ويقودهم.. وهذا هو عمل المشرع العظيم .

لم يفاجأ محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام الناس بالشرع قط ، ولم يرد أن يثقل عليهم بأحكامه الجديدة ، حتى يمهد لها الطريق وينفذ بها الى قلوب أفراد الجماعة فليس كل ما كتب على ورق وامر به الناس يعد قانونا ، انما القانون ما ارتضته الجماعة وسد حاجة لها ، وزاد فى خيرها . وقد روى عن نصر بن الليث عن رجل منهم انه أتى النبى فأسلم على أن يصلى صلاتين لا خمسا . فقبل . وعن وهب قال : « سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت » فقال : « اشترطت على النبى أن لا صدقة عليها ولا جهاد » ، وانه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه ابو داود . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « اسلم » قال : « أجدنى كارها » قال : « اسلم وان كنت كارها »

ولم يكن عليه الصلاة والسلام ليقنع بالتلطف للناس منذ أول عهدهم بالدين ، فاذا دخلوا فى صفوفه ، اشتد عليهم وسد فى وجههم منافذ النجاة من العقاب ، وجعل العقاب والخوف هو الحارس للجماعة . بل إنه جعل ديدنه فتح أبواب التوبة والاخذ بيد من تورط فى الخطأ ومن قارف الجريمة . وقد كان نهجه عليه السلام من نهج القرآن الذى ورد فيه لفظ التوبة وما اشتق منه فى أكثر من تسعين موضعا . وقد روى عن رسول الله فى هذا الصدد أحاديث تعيا بعض العقول فى فهمها ، والوقوف على أسرارها . من ذلك قوله عليه السلام : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بآخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » فقد علم عليه

افضل الصلاة والسلام ، ان الخطأ قدر مكتوب على الانسان ، وانه ليس أقسى على النفس الانسانية ولا أشد عصفا بها من الحاح الشعور بالاثم عليها ، فقد يوردها موارد التلف أو يلقى بها فى مهاوى الجنون أو الياس الذى لا اصلاح بعده .

ذهب عليه الصلاة والسلام كل مذهب ليدخل الطمأنينة الى القلوب الشاردة الواجفة والتخفيف عمن خيل اليه انه قد أثم ، اذ خطر له خاطر من الشك فقد شكا اليه بعض صحابته من وساوس نفوسهم ومما عانوه من الشك ، فقال لهم : « هل وجدتموه ؟ » فلما قالوا له : « نعم » قال : « الحمد لله !.. هذا محض الايمان » . صدق رسول الله فان النفس المؤمنة هى التى لا يكف حوارها مع صاحبها فى كل ما يعرض لها من شئون الدنيا ومشكلات العقيدة ومواقع الشبه .

ومنهج سمح كهذا لا يستقيم الا بمبدأ الاخذ بالظاهر فقد كان رسول الله يقول : « انك أن لتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ومن تطبيقات هذا المبدأ أن أحد أصحاب رسول الله قتل رجلا بعد أن القى اليه السلم اى بعد أن اظهر انه لن يحارب ، فلما اشتد غضب رسول الله ، وقال له صاحبه : « ان هذه كانت خدعة يا رسول الله » فقال : « ولو كانت كذلك فانا أمرنا أن نأخذ بالظاهر » .

فدور العقاب عند رسول الله لا يعدو أن يكون صارفا للنفوس عن الشر ، مخوفا لها من سيء عواقبه ورادعا لمن لا تصلح فيهم الموعظة الحية ، ولا تقومهم القدوة الصالحة . ومن ثم كان درأ الحدود بالشبهات أصلا أصيلا من أصول الشريعة الاسلامية ومؤدى هذا الاصل

ان على القاضى تلمس كل الاسباب المانعة للعقاب ولو كانت شبهة ، وأن يبذل فى سبيل ذلك أقصى الجهد والمثل الذى يضرب لبيان المقصود من هذا المبدأ هو مثل ماعز المعروف . فقد جاء ماعز الى الرسول معترفا بأنه زنا فلم يهش الرسول لهذا الاعتراف وأخذ يفتح لماعز أبواب النجاة قائلا : « لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك أ .. لعلك أ .. » فلما اصر ماعز على اعترافه لم يكن ثمة مناص من انزال عقوبة الرجيم عليه . فلما اخذ لتنفيذ الحد اشتد وجعه فحاول الفرار ، فلحق به الناس ، وما زالوا به حتى قتلوه فلما سمع الرسول بذلك قال : « هلا تركتموه » .

وبقدر حرص الرسول على سد المنافذ فى وجه العقاب كان يبالغ — عملا بالمنهج القرآنى — فى الاحتفاء بالعمل الطيب مهما صغر ويقول : « من هم بحسنة ولم يرتكبها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ولم يرتكبها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وارتكبها كتبت له عشراً » .

— ٤ —

لم يشرع محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام للعرب وحدهم وانما — كما سبق القول — شرع للانسانية كافة على أسس من احكام القرآن .

جاء فى الذكر الحكيم : « وأرسلناك للناس رسولا » « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ولقد قامت الدلائل على أن هذا البناء القانونى الشامخ الذى أقام محمد صرحه كان بناء انسانيا بحتا تجاوز بلاد العرب وتجاوز الزمن الذى بعث فيه الرسول وكان — من بين الانظمة القانونية والتشريعية — فريدا فذا لا يدانيه ولا يشبهه نظام سواه . فالشريعة اليهودية كانت لليهود

وحدهم ، والشريعة المسيحية خلت من احكام مفصلة تتناول شئون الدنيا كما فعلت شريعة الاسلام. فالاسلام اورد احكام البيع والشراء ، والزواج ، والطلاق ، والرق والعتق ، والحرب والسلم ، كما أورد روابط واسس علاقات الانسان الفرد بنفسه وبزوجه وبجماعته ، وبالناس اجمعين ، والاديان غير المنزلة ـ البرهمية والبوذية ـ اقليمية بحتة لم تتجاوز شرق آسيا وشرقها الجنوبي . أما الذين اتخذوا من شريعة الاسلام قانونا ومن محمد بن عبد الله اماما ، واسوة ، في شئون معاشهم ، وعباداتهم ، وبناء مجتمعهم فقد انتشروا في افريقيا وآسيا ، وعاشوا في مناطق أوربا وامريكا ، وظلوا هكذا قرونا بلغت أربعة عشر قرنا .

ولا جدال في أن صبغة الشرع المحمدي هي صبغة انسانية وثمة قرينتان أساسيتان على ذلك قرينة الزمان وقرينة المكان ، فمن الزمان امتد عمر هذا الشرع قرونا ككل عمل انساني صالح ، ومن المكان فقد شمل اقطارا متباعدة ، تسكنها اجناس ، متباينة ، ولكن القرينة الكبرى مستمدة من أحكامه فانه يقوم على الانسان ، وللانسان . يحميه من نفسه ويحميه من عوادي الطبيعة ، وينير له طريقه ، في صلاته بالكون ويحوله الى طاقة خير تتجدد وتقوى .

ولو أردنا لضربنا الامثلة العديدة على انسانية هذا الشرع ولكن حسبنا ان نضرب المثل بحكم الاسلام في الرق . فالاسلام لم يلغ الرق ، وان ضيق موارده الى أقصى حد ، ووضع من الاحكام والقواعد في شأن الرقيق ما كشف عن جوهره الانساني أكثر مما لو حرم الرق ، وعاقب من يسترقون الناس بأقصى عقاب . ذلك لأنه

اعترف بانسانية الرقيق، وكرامته ، وقدمه على الاحرار وحباه بمتجدد عطفه فدل بذلك على أن الانسان يبقى انسانا ، وتبقى له كل حقوقه ، على اخوانه من الناس وعلى الجماعة ولو كان رقيقا . فانسانية الانسان أعلى من أن تطولها يد أو يطمسها نظام ، أو أن يحجبها قانون. بقى الرقيق متاعا فى الغرب يحق لصاحبه أن يقتله آمنا اذا هو اعتدى ــ ولو بكلمة سب ــ على احد الاحرار وقد نص على هذا الحكم الوحشى الجائر قانون صدر فى بريطانيا سنة ١٦٨٥ .

أما محمد رسول الله للناس كافة فقد قال منذ أكثر من الف وأربعمائة سنة : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده ، جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه » ولم يقف محمد عند هذا الحد . ولو وقف عنده لكان شيئا عظيما ولكنه ولى الرقيق الذى أعتق أكبر المناصب فولى بلالا المدينة ، وهو عبد حبشى ، وفيها وجوه العرب وساداتهم ، وأمر أسامة على جيش كان فيه كبار الصحابة . وأسامة هو ابن زيد بن حارثة عبد رسول الله، وقد تأسى برسول الله خلفاؤه والمسلمون فلما ذهب عمر الى الشام ليبرم مع أهلها معاهدة ، اصطحب معه رقيقا فكان يركب هو بعض الطريق ، ويركب عبده بعضا آخر ، فلما وصلا الى دمشق ، وخرج الناس ليستقبلوا أمير المؤمنين وجدوا العبد على الدابة ووجدوا الأمير من خلفها .

ونحن نقول ذلك لنستخلص منه النتيجة التى ان لم نختم بها احاديثنا عن رسول الله المشرع لما كان لاحاديثنا النفع الذى نرتجيه لها . ان العالم اليوم قلق مضطرب كما كان بعهد رسول الله ، وأحسب أن سبب ذلك أن

العالم لم يهتد بعد الى نظام يحقق الاتساق والتلاؤم بين اصـــول متعارضة : اى بين حقوق الفرد ، وحقوق الجماعة ، وسيادة العقل ، وسيادة الروح ، وسلطان الدولة ، وسلطان القانون ، وراس المال المسيطر الذى يوسع الهوة بين الفقراء والأغنياء ، ورأس المال المكبل الذى يورث استبداد الفنيين والاداريين حينا ، وبطش الحكام واستبدادهم حينا . واحسب أن الشرع الذى بعث به محمـد ودعا اليه ، فيه من أسباب التوازن وعناصره ، ما يستحق معه ، أن يعرضه المسلمون على غيرهم بلغة اليوم وأسلوبه ، وبمناهج من تتلمذوا على محمد وتأسوا به .

محمد رسول الله مشرعا

١ ـ معالم منهجه الاخلاق

ان من الأسس فى الشريعة الاسلامية ، أن الانسان ، هو الشريعة ، فالانسان الذى توافرت فيه صفات معينة ، واجتمعت له خصائص محددة ، هو الانسان الذى يتلقى العقيدة الاسلامية ، يشرح الله لها صدره ، ويثبت عليها الى آخر عمره . فالمؤمنون تعرفهم بسيماهم ، ومن هنا لم تكن الاخلاق ، مجرد تهذيب للأفراد ، وانما هى المدخل للعقيدة الاسلامية ، والاساس الذى تقوم عليه ، والنتيجة التى تثمرها العقيدة ، فهى فاعلة ومنفعلة ، وهى سبب ونتيجة ، وهى وسيلة وغاية .

لذلك كان أكبر ما انفقه الرسول من جهد ، وهو يدعو للاسلام ، ثم وهو يقيم دعائم المجتمع الاسلامى ، ثم وهو يدافع عن هذا المجتمع ، واخيرا وهو يخوض الحرب مع أعداء هذا المجتمع بقيمه ومبادئه ، كان أكبر جهد بذله الرسول فى هذه الأطوار جميعا ، هو جهده فى التربية الاسلامية .

وقد وصفه القرآن : « وانك لعلى خلق عظيم » ، وقال : « أدبنى ربى فأحسن تأدينى » . كما قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ومن كلمات الرسول ، عليه السلام ، الجامعة : « ذهب حسن الخلق بخير الدين والآخرة » ولم يكن

يكف عن دعاء ربه بقوله : « اللهم كما حسنت خلقى ، فحسن خلقى » ، ثم بقوله : « اللهم اهدنا لأحسن الاعمال ، وأحسن الاخلاق ، لا يهدى لأحسنها الا أنت»

وقال : « ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن » ، وقال : « ليبلغ المرء بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل » .

وهو لم يدع مكرمة من مكارم الأخلاق الا وذكرها وزكاها ، وحرص على اتباعها .

ولكن من أمهات الفضائل عن الرسول ، كما هى فى القرآن ، فضيلة الصدق . لأنه فى واقع الأمر ، هو مصدر عشرات من الفضائل الاخرى ، كالشجاعة ، والصراحة ، والثبات على المبدأ ، واحتمال الأذى ، وانكار الذات ، والدعوة الى الحق ، والنهى عن المنكر ، والوفاء للناس ، لذلك قال : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور، والفجور يهدى الى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

وقال عبد الله بن عمر بن العاص : « قلنا يا نبى الله من خير الناس ؟.. قال : ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق » .

قلنا يانبى الله ، قد عرفنا اللسان الصادق . فما القلب المخموم ؟ .. قال : « التقى النقى الذى لا اثم فيه ، ولا بغض ولا حسد » .

ولما كان الصدق هو من أركان البناء الاخلاقي الذي شاده رسول الاسلام ، فقد كان النفاق والمراءاة هم أشد الرذائل نكرا عنده حيث قال : « شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » .

وبقدر ما دعا الي الصدق ، دعا الى الحب ، وعنوان عقيدته : « لاتؤمنوا حتى تحابوا » ، و « ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « وانما المؤمنون اخوة » .

ولكم دعا الى الحب ، وكم كره للناس الحقد والحسد ، والغضب فقال : « ان أحبكم الى أحسنكم أخلاقا » ، « الموطئون اكنافا ، الذين يألفون ، ويؤلفون ، وان أبغضكم الى المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الملتمسون للبراء العيب » .

لذلك كره أن يتورط المسلمون فى المراء ، والمشاحنة المفضية الى الكراهية والبغضاء ، فقال :

« مهلا أمة محمد ، انما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فان المؤمن لايمارى ، ذروا المراء فان الممارى قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى الا تزال مماريا ، ذروا المراء فان الممارى لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاث أبيات فى الجنة ، فى رياضها ، ووسطها ، وأعلاها ، لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فان أول ما نهاني عنه ربى بعد عبادة الأوثان ، المراء . وقال : « من هجر أخاه خمسة ، فهو كسفك دمه » .

وبقدرما اشتد الرسول فى تقبيح المراء ، صور الحب والمتحابين فى أجمل الصور ، وأبهاها ، وأكثرها اشراقا ،

قال : « ان من عباد الله أناسا ، ما هم بأنبياء ولا شهداء الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، عطاؤهم من الله تعالى ، قالوا يارسول الله : « تخبرنا من هم ؟ » قال : « هم قوم تحابوا ، بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها. فوالله أن وجوههم لنور ، وأنهم لعلى نور.. لا يخافون ، اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس .. » (١)

وقد يظن ظان أن الرسول قصر نصائحه على الفضائل الكبرى ، ولكن هذا الظن فى غير موضعه ، فالرسول حرص على أن يضع قواعد رقيقة لمجتمع نظيف أنيق يزدان بالذوق المصفى ، وبلطف العلاقة ، وبحسن المظهر والمنظر ، وبجمال الاشارة والعبارة ، ولست قادرا على أن أورد عشرات أو مئات الأحاديث فى هذا المعنى ، ولكن حسبى أن أقدم منها أمثلة ، فقد رأى رسول الله عمر بن الخطاب يبول قائما ، فقال له : لا عمر لا تبل قائما ، ورأى رجلا مضطجعا على بطنه ، فقال : أن هذه ضجعة لا يحبها الله تعالى ، وقال : « لا يستلقى أحدكم ثم يضع احدى رجليه على الاخرى » ، وقال : « من اكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » ، وقال عمر بن عمرو بن العاص أن رسول الله رأى عليه ثوبين معصفرين (شديدى الصفرة) فقال له : « أمك أمرتك بهذا ؟ » ، فقال ابن عمر : « أغسلهما يا رسول الله ؟ » قال : « بل احرقهما » . وكان رسول الله يكره الثوب الذى تشم منه رائحة العرق .

---

(١) يمكن للقارىء أن يطلع على عدد كبير من هذه الاحاديث فى كتاب « انسانيات محمد » بقلم خالد محمد خالد ..

واليك هــذه القواعد المثلى فى آداب المجتمع : اذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فان ذلك يحزنك . لا يقيم أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا ، وتفسحوا ، يفسح الله لكم .

ولا يحل لرجــل ان يجلس بين اثنين الا باذنهما : « واذا انتهى أحدكم الى المجلس فليسلم ، فان أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الاولى أحق بالاخرى » .

٢ ــ الرجل الصالح خير من القانون الصالح :

بما أن الشرع الاسلامي ، يقوم أصلا على الانسان ، أى على مصلحته ، بما يطابق خصائصه وصفاته ، وبما يحقق دائما كرامته ، فقد قام على الاخلاق ، لأن كل ما عدا الأخلاق من وازع ودافع ، لا يخلو من القسر والعنف ، ولا يخلو قسر أو عنف ، من امتهان لـكرامة الانسان ، وافتيات على حق من حقوقه ، فاذا كانت الأخلاق هى الوازع الأكبر ، عند الاسلام ، وكانت غايته أن يرهفها الى أقصى الحد ، وأن يستخدم سلاحها ، ويقوى صوتها فى قلب الانسان ، فخير من يحقق هذا ، الانسان ، الذى يقترب فى منهجه وخصائصه وأسلوبه وطريقته من رسول الله : « قد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

فالرجل الذى يتقــدم على الشريعة ، لأن الرجل الصالح ، هو الذى سيتلقى الشريعة الصالحة ، ويؤنس بها ، وهو الذى سيقوم على تنفيذها ورعايتها . وتاريخ الاسلام شاهد على ذلك ، فعمر الدعوة الاسلامية منذ بعث محمد الى أن توفى الى رحمة الله ، هو ثلاثة وعشرون عاما ، كان منها ثلاثة عشر عاما فى مكة ، والثابت أنه لم ينزل خلال هــذه المدة من القرآن شىء يتضــمن

الاحكام ، فقد اقتصرت الدعوة فى هذه المرحلة على اسسها الكبرى . على التوحيد ونبذ الشرك ، والتطبع بالأخلاق الاسلامية ..

فقد قام الاسلام على عدد قليل من الرجال الصالحين وفى خلال سنى صحبتهم للرسول ، وجهادهم معه ، ومحاربتهم للشرك ، ونشرهم لعقيدة التوحيد البسيطة ، بنى الاسلام ، وارتفع صرحه ، وتوالت أحكامه فى العبادات ، والمعاملات ، والحدود .

فى خلال هذه الفترة ، كان الرسول يجمع الرجال الصالحين الاقوياء ، ويجعلهم عمدا لهذا المجتمع الجديد ، وكانت مهمته التطبيب والعلاج ، والمداواة عملا بالحديث القدسى القائل : « يقول الله دعونى وعبادى ، أن تابوا الى فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم .. »

ولذلك كان من الاصول الاساسية فى الشريعة ــ كما مر بنا ــ اختيار الرجل الصالح فريضة على المسلمين ، ولاة امورهم ، وعامتهم ، وانه اذا وجد صالح وأصلح وجب تقديم ثانيهما على أولهما ؛ لأن فى اختياره مناط المصالح ، وحسن رعايتها ، وخير المسلمين ، ورد الشر عنهم .

ويكمل هذا الركن ، ويقيمه على أقوى الاسس ان تكون بطانة الرجل الصالح صالحة ، كذلك ، فما أكثر أن يبدأ الرجل صالحا ، ثم يتسلل الى بطانته ، أهل السوء ، ويزداد عددهم شيئا فشيئا ، حتى يصبحوا هم محل ثقة ولى الامر ، كبر مقامه او صغر ، فيصبح هو فى أيديهم أداة يديرونها كيفما شاءوا .

قال عليه السلام :

« ما من وال الا وله بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا .. فمن وقى شرها فقد نجا .. »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اذا أراد الله بالأمير خيرا ، جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه » .

هذه هى الحلقات الثلاث ، تكمل بعضها بعضا :

اختيار الرجل الصالح .

تحيط به البطانة الصالحة لا البطانة السيئة .

ويكون له وزير صدق لا وزير سوء .

وهـذه المراتب الثلاث ، تكون ضمانة من أكبر ضمانات اقامة الدين ، وصلاح الرعية ، وسعادة الناس . وهى فى الوقت نفسه ، الجو الصالح ، الذى تسود فيه أحكام الشرع ، ويهتدى فيه الفقهاء والعلماء الى الحكم الصحيح فى الكتاب والسنة ، والا وجدوه بالقياس والاجتهاد بسبله المعروفة ، وطرائقه المشروعة

٣ ـ الصلة الحسية بين ولاة الأمر والرعية :

اذا تيسر اختيار الرجل الصالح ، واختياره من أشد الامور عسرا ومشقة ، فما الضمان ان بطانة السوء لن تحيط به ، وان وزير السوء ، لن يستأثر بهواه ، ل ما السبيل الى الاهتداء الى الرجل الصالح ، إختياره ثم القطع بأنه لا يوجد من يفضله .

لا سبيل الى ذلك كله الا أن يكون ولى الامر فى

متناول الناس ، يصلون اليه حينما يقصدونه ، لا يردهم عن بابه حجاب ، ويبلغونه رأيهم ، ويسمعونه احتجاجهم ، ويراهم رأى العين ، لا بطريق النقل عن سواه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ قال له العباس : « لو اتخذت لك عرشا ، فان الناس قد آذوك » ، قال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ، ينازعونى ردائى ، ويصيبنى غبارهم ، حتى يكون الله يريحنى منهم » .

ولذلك شدد رسول الله النكير على ولاة الامر الذين يحتجبون عن الناس فقال :

« ما من امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة ، والخلة والمسكنة ، الا أغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته ومسكنته » .

واذا فتح الوالى بابه لذوى الحاجة ، والخلة والمسكنة ، أو أولى الضعف والحاجة ، كما جاء فى حديث آخر ، فقد فتح بابه لكل الناس ، لأن ولاة الأمر يفتحون ابوابهم عادة لذوى الوجاهة ، وأهل الصدارة ، ولأمثالهم من الحكام والمقربين من بطانتهم وأعوانهم ، ويسدون بابهم فى وجه أصحاب المصالح والضعفاء الذين لا سند لهم ، فان فتح الباب لهؤلاء الضعفاء المجهولين الذين يعوزهم السند والظهير ، فقد فتح الباب للناس كافة ، واذا فتح باب ولى الامر للناس فسيسمعونه رأيهم فى بطانته ووزرائه ، وسيعرف من قولهم الصالحين من الرجال والطالحين وستهب من هذه الابواب المفتوحة رياح لا قبل للفاسدين بالوقوف فى وجهها ، فانها تقتلع الفاسد من أساسه ، وان كان قويا فى ظاهر الامر فليس أضعف من الفاسد .

اذا كملت للجماعة تربيتها الخلقية ، فقد تهيأت لأن تفرض عليها التكاليف والعبادات وتطالب بأداء الواجبات وتحاسب على التقصير وتؤاخذ على انتهاك الحرمات وتخطى الحدود .

فلا يكلف أحد شيئا الا بعد أن تتهيأ نفسه له ، فيدرك هذا التكليف وحدوده ، ويدرك ضرورته ولزومه لمصلحته ، ثم يعالج كما يعالج الصبى الناشىء ، أو المريض الناقه ، حتى يستيقن ولى الامر انه بات كفئا للتكليف فيفرض عليه ، ثم يحاسب اذا لم يقم به .

كانت هذه سنة الاسلام كله ، فكانت سنة القرآن ، وكان الرسول هو الذى جرى على هذه السنة طاعة لرب العالمين ، وابلاغا لرسالته .

فالقرآن لم يطالب الناس ، أول الأمر ، الا أن ينبذوا الشرك ، وأن يؤمنوا باله واحد ، لا شريك له ، وأن يتركوا الفواحش والمعاصى ، ما ظهر منها وما بطن، ويتحلوا بالأخلاق التى أوصاهم بها الرسول ، ويبينها لهم . ومضت سنوات فى أثر سنوات ، لا يطلب منهم الا هذا ، ولا تلقى عليهم من الدروس الا ما يتصل به ، او يدور حوله .

فلما نزلت آيات الاحكام نزلت متدرجة ، كما سنرى ذلك ، ولعل حكم الخمر كان أبين الامثلة على هذا الشيء السهل الميسر .

فقد كانت الخمر آفة متفشية فى المجتمع المكى ، وكانت لها تجارة وتجار ، وكان تحريمها صدمة لمن

الفوا شربها ، لذلك بدأ الاسلام ينبه الى ما يهدف اليه آخر الشوط ، فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما » (١)

فكان ذلك تنبيها الى أن الخمر ليست كالمعهد بها ، شرابا مباحا ، لا يثير تعاطيه مناقشة ، فلما تهيأ الناس لذلك ، حرمت عليهم الخمر عند الصلاة ، فصعب تعاطيها خلال النهار ، لتقارب مواقيت الصلاة ، ونزل القرآن بالآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٢) .

ثم نزل حكم التحريم فقال : « انما الخمر والميسر والازلام والانصاب رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله » (٣)

ويروى أنس بن مالك . انه كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح ، وأبا طلحة ، وأبى بن كعب شرابا ، فجاءهم من يخبرهم بأن الخمر حرمت ، فأمر ابو طلحة أنس بن مالك فكسر الجرار وكانت ملكا لأبى طلحة (٤) .

وتجد مثل هذا فى حكم الربا كذلك ، فقد بدأ بقوله : « وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس ، فلا يربو

---

(١) البقرة ـ ٢١٩
(٢) النساء ـ ٤٣ ..
(٣) المائدة ـ ٩١ ، ٩٢

(٤) تاريخ الفقه الاسلامى ـ الجزء الثانى ـ ص ١٠٩ محمد يوسف موسى .

عند الله » (١) ويثنى بقوله عن اليهود : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » (٢) ثم انتهى الى التحريم الصريح بقوله : « اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا » .

ولقد جرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم على هذه السنة فى الدعوة الى الدين كله ، وفى تنفيذ أحكام الشريعة ، ولعل ما فعله مع ثقيف ــ وقد مر بنا ــ من أشد الأمثلة وضوحا فى الدلالة على هذا المنهج ، فعن عثمان بن أبى العاص قال : « لما قدم وفد ثقيف نزلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم فاشترطوا الا يعشروا ، ولايحشروا ، ولا يجبوا » فقال صلى الله عليه وسلم : « لكم ألا تعشروا ولا تحشروا ، ولا خير فى دين ليس فيه ركوع » . ومعنى هذا الحديث أن الرسول عليه السلام وافقهم على ألا يعشروا ، أى الا يدفعوا عشورا اى زكاة ، والا يحشروا ، اى الا يجاهدوا ، ولم يوافقهم على الا يجبوا ، أى على اعفائهم من اداء الصلاة ، والتجبية هى أن يركع الانسان .

ويفسر بعض المفسرين قبول الرسول هذين الشرطين بأن الزكاة لا تجب على المسلمين الا بتمام الحول ، ولم يكن الحول قد كمل عندما طلبت ثقيف هذا الاعفاء ، كما ان الجهاد لا يلزم الا بقيام مقتضاه ، أما الصلاة فواجبة ، ولا سبيل الى الاعفاء .

وعن وهب قال : « سألت جابرا رضى الله عنه عن شأن ثقيف اذ بايعت » فقال : اشترطت الا صدقة عليها ، ولا جهاد » وانه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيصدقون ويجاهدون اذا أسلموا » .

---

(١) الروم ــ ٣٩ (٢) النساء ــ ١٦١

وهذا هو الأصح ، فرسول الله يعلم أن ثقيفا كانت تطلب اعفاءها من الزكاة والجهاد ، أبدا ، ولم يكن من خلق الرسول أن يخادع الناس ، فى عهوده ومواثيقه ، فقصده هو ما أعلنه من أن ثقيف اذا دخلت الدين ، واطمأنت اليه ، نفذت كل أحكامه ، فشروطها عند الدخول فى الاسلام ، شروط من لم يكمل ايمانه ، وقد تحقق ما توقعه الرسول ، وصلح اسلام ثقيف وخرج منها رجال أقوياء أشداء ، خدموا الاسلام بعقولهم ، وحاربوا عنه بسيوفهم .

أما منهج الرسول فى تنفيذ الاحكام ، فقصة ماعز بن مالك الاسلمى خير مثال فى هذا الباب ، وقد أوردناه فى موضع سابق من الكتاب .

ولكن مثل (الغامدية) لا يقل جلالا عن مثل (ماعز) فقد جاءت الغامدية فقالت : يارسول الله ، انى قد زنيت فطهرنى ، فردها ، فلما كان من الغد قالت : يارسول الله لم تردنى ، لعلك ان تردنى كما رددت ماعزا ، فوالله انى لحبلى فقال : أما لا فاذهبى حتى تلدى . فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة وقالت : هذا قد ولدته ، قال : فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى وفى يدها كسرة خبز ، فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وقد اكل الطعام ، فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ، ثم امر بها فحفروا لها الى صدرها ، وأمر الناس أن يرجموها ، فأقبل خالد ابن الوليد بحجر ، فرمى رأسها فنضح الدم على وجهها فسبها ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم سبه اياها ، فقال : مهلا يا خالد ، فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى

عليها ودفنت (١) .

وهاتان الروايتان لهما دلالتان : أولاهما ، هــذا الرفق البــاهر فى تنفيذ الاحكام ، وانزال الحدود ، فالرسول لم يهش لهذا الاعتراف الصــادر من ماعز والغامدية ، وهو اعتراف هادىء لا تردد فيه ، ولا حماسة طارئة ، مبعثــه فى الحالين ايمان كامل ، بأن انزال الحد بهما حق لا مرية فيه ، ولا فرار منه ، وأنه مطهر لهما مبرىء لساحتهما ، وقــد تراخى تنفيــذ العقاب أياما حتى بلغت فوق الاسبوع، وتراخى فى المرة الثانية حتى بلغ سنين .

اما الدلالة الثانية فهى ما أعلنته الروايتان عن مبلغ ايمان المسلمين بانهم لايفعلون شيئا الا والله مطلع عليه ، وانهم لايستطيعون اخفاءه عن الله ، وان خفى عن الناس وهو أقصى ما يطمع فيه المربون فى تربية الأفراد وخلق الجماعات . فهذا اليقين ضابط خلقى وحاكم تربوى ، لا يقوم على أوهام أو مخاوف كاذبة لأنه يقيم من ضمير الناس رقيبا عليهم يحاسبهم على أعمال وجرائم لايرضى عنها مجتمع الا أن يكون قد تدهور الى الحضيض .

ثم انظر بعد ذلك الى هذا الحزن الذى يخالط نفس الرسول وهو ينهى خالدا عن سب الغامدية ، مع انها زانية ، نفذ فيها الحد ، فالمجرم بعد أن يعاقب ، من حقه أن يستأنف حياته فى المجتمع كالأبرياء الذين لم يذنبوا ، والا يعيره أحد بجريرته لا سيما اذا كان قــد سعى بنفســه الى العقاب وطلب من قاضيه أن ينزل عليه الجزاء .

---

(١) اخرجه مسلم وداود ــ من وحى الاحاديث المحمدية ــ ص ١٧٤ ــ محمود على قراعة ..

وفى هذا المعنى روى ان حـــدا نفذ فى امرأة زنت ، فلما ماتت قام النبى فصلى عليها . فقال عمر : أتصلى عليها وقد زنت ؟.. فقال صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينـــة ، لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل (١) .

وعن عمر رضى الله عنه ، أن رجلا كان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله أحيانا ، وكان الرسول قد جلده فى الشراب ، فأتى يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمت الا انه يحب الله ورسوله » لقد صدق رسول الله .

« ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله .. وان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه (٢) ، وانه من يحرم الرفق يحرم الخير كله» (٣) .

٥ ــ التسوية فى الاحكام ، وفى الوقوف بين يدى القضاء :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قاربوا وسددوا ، واعلموا انه لن ينجو أحد منكم بعمله » قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضله » .

فالقاعدة الأساسية ان النـــاس سواسية كأسنان المشط ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، فيجزاه الجزاء الأوفى ، الناس بأعمالهم

(١) اخرجه الخمسة الا البخارى ــ عن وحى الاحاديث المحمدية جزء ص ١٧٥ ــ محمود على قراعة
(٢) رواه مسلم ..
(٣) رواه مسلم عن عائشة

فقط ، لا بأحسابهم ، ولا بأموالهم ، ولا بمكانتهم ، يحاسب كل الناس ، ومع الناس ، رسول الله ، المبلغ لدينه والقائد لأمته ، والهادى للمسلمين .

وفى كلمة ، أقام الرسول فى ظل القرآن ، دولة القانون على حد ما نقول هذه الايام .

قال ابن اسحاق : « كان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكان ابنا لهالة بنت خويلد ، وكانت خديجة ـ بنت خويلد ـ زوج الرسول خالته فسألت خديجة الرسول أن يزوجه ، فزوجه ابنته زينب ، فلما كان الاسلام ، آمنت به خديجة ، ولكن بقى أبو العاص على دينه ، فرجعت زينب الى أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى احدى الغزوات أسر أبو العاص ، فروت السيدة عائشة قالت :

لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها . قالت فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رق لها رقة شديدة ، وقال : « ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » .

فقالوا : « نعم يا رسول الله » فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

قال ابن اسحاق : « حتى اذا كان قبيل فتح مكة خرج أبو العاص تاجرا الى الشام ، وكان رجلا مأمونا بمال له ، وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه » .

فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سرية لرسول الله ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هاربا ، فلما

قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص في جنح الليل ، حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها ، فأجارته .

فلما خرج رسول الله الى صلاة الصبح ، كما حدثني يزيد بن رومان كبر وكبر الناس ، صرخت زينب من صفة النساء :

« أيها الناس ، انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! »

فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، أقبل على الناس ، فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : « نعم » قال : « أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، انه يجير على المسلمين أدناهم » .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته فقال :

« أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك فانك لا تحلين له » .

قال ابن اسحاق : « وحدثنى عبد الله بن ابى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال :

« ان هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فانتم أحق به » .

قالوا : « يارسول الله بل نرده اليه » .

قال : « فردوه اليه » .

وتجمل بقية القصة فى أن أبا العاص عاد الى مكة ، بعد أن أطلق المسلمون سراحه ، ومعه ماله ، وأموال

اهل قريش التي ائتمنوه عليها ، فلما ردها الى أصحابها سألهم : هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟..

قالوا : « لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما » .

قال : « فانا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الاسلام الا تخوف ان تظنوا انى انما اردت ان آكل أموالكم ، فلما اداها الله اليكم ، وفرغت منها أسلمت » (١) .

وهذه الرواية تحمل أكثر من معنى ، ولكن يهمنا من معانيها الكثيرة ما يتصل بحديثنا عن التسوية بين الناس أمام القانون.. فمحمد هو رسول الله ، وابو العاص زوج ابنته ، والرسول معروف لصحابته ، انه عظيم الحب لبناته وذوى رحمه ، ولكن القانون ينفذ فى زوج ابنته ، وفى ابنته جميعا ، فهى تنفصل عن زوجها وماله يصادر كما يصادر مال اى قرشى آخر ، ويحتاج الرسول لأن يرجو المسلمين الذين أصبح هذا المال حقا لهم ، باعتباره من الغنائم ، أن يردوا لزوج ابنته ماله ، مجرد رجاء . ولا يغير فى الامر أن يكون رجاء الرسول مستجابا ، ولكن النظام والقانون أحوجه أن يرجو ، وأكبر من ذلك ، انه تبرأ أمام المسلمين عندما سمع من زينب ، عند صلاة الصبح انها اجارت زوجها . تبرأ من شبهة انه عرف ذلك من قبل. والرسول هو هو، من ثقة المؤمنين به ، واطمئنانهم اليه ، واخذهم عنه . ولكنه فى حاجة لأن يضرب المثل وابنته لا تلجأ اليه ، بل تلجأ الى المسلمين ، وتعلن ذلك

---

(١) روى هذه الواقعة وعلق عليها محمد خلف الله أحمد فى كتاب القرآن ومشكلاتنا المعاصرة ــ ص ٢٢٦ ..

لهم ، لا لأبيها ، ويتم الأمر فى وضح النهار، وعلى رؤوس الاشهاد ، لا محاباة فيه ، ولا خفاء .

وزينب لم تلجأ الى ابيها ، قبل أن تعلن للمسلمين فى المسجد انها أجارت زوجهـــا ، لانها تعلم أن اباها لا يملك لها من الامر شيئا .

ومع ذلك ، فلا مجاملة فى الدين ، فزوجها المشرك لا يخلص لها ، ولا يحل ان يصيب منها ، ما يصيب الرجل من زوجته ، فحسبه انه أطلق سراحه ، ورد له ماله .

ولـكن هـذا الصنيع كله ، من احترام القانون ، ومشاورة المسلمين فى الأمر ، وترك الامر لأصحابه لا للنبى ، ولا لأحد من كبار أعوانه ، اثر فى قلب ابى العاص ، فأدرك معه ، مبلغ سمو الجماعة الاسلامية ، فعاد الى قريش ، ليبرىء ذمته ، وليعلن هناك فى مكة عاصمة المشركين ، لا فى المدينة عاصمة المسلمين ايمانه فيحقق بذلك أمرين : أولهما ، أن يرد للناس اماناتهم فلا يحسبون انه بقى فى المدينة ، ليضيع عليهم مالهم ، ولينفي عن نفسه شبهة انه أعلن ايمانه بالدين الجديد ، وهو فى أسر المسلمين ، وربقتهم ، فكان صنـيـعه من البداية الى النهاية ، مثلا طيبا ، لا شك فى أن المشركين تأثروا به ، وهز من عقيـدتهم ، فأبو العاص كان فى القمة من المجتمع القرشى ، وما يصدر عنه ، يحظى بالحفاوة والاهتمام .

أما قصة المخزومية فمشهورة ذائعة ، وعن عائشة : « ان قريشا اهمتها المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد رضى الله عنه ،

حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أى حبيبه ، فكلمه أسامة رضي الله عنه فقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى؟ ثم قام فاختطب. ثم قال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » (١) .

هذه القواعد هي التى أدت بجماعة المسلمين الى أن يقف كبير من كبرائهم ، وزعيم من زعمائهم ، هو الامام على ، مع خصمه اليهودى ، أمام الخليفة عمر ، فلما وجه عمر القاضى الخطاب الى الامام بقوله : « خذ مكانك بجانب خصمك يا أبا الحسن » يغضب على لا لأن القاضي اشتد معه ، بل لأن القاضى تلطف معه فناداه : « يا أبا الحسن » فى مجلس القضاء ، لأن الكنية تدليل واعزاز ، عند العرب .

٦ ـ الجماعة هى حامية القانون ، والساهرة على الشريعة

الرقيب على الافراد ضمائرهم ، وايمانهم بأن الله مطلع على ما يفعلون ، بل على ما يناجون به أنفسهم ، اذا خلوا لها .

والرقيب على أولى الامر الذين بيدهم السلطان ، والذين اليهم تنفيذ الاحكام ، هى الجماعة نفسها ، فان ضعفت جماعة المسلمين ، وقبلت ان يفتات على احكام الدين ، وأن يخرج أولو الأمر على أوامره ونواهيه ، فيمدوا أيديهم الى مال المسلمين ، فيغترفون منه ، أو يستأثرون بأكثره او ان يتخذوا من السلطة سياجا يحميهم من نقد الناقدين ، أو سيفا يرهبون به رعيتهم ، أو أن

(١) اخرج الخمسة ـ من وحى الاحاديث المحمدية ـ ص ١٧٦

يستأثروا بالرأى ، لا يشاورون ولا يعرفون الا رأى أنفسهم ، ورأى خلطائهم ، الذين لا يمكن الا ان يكونوا بطانة سوء ووزراء شر ، لان البطانة تسوء اذا أمنت نقد الناس وحكم الجماعة .. اذا حدث ذلك فلا نفع فى قانون ، ولا أمل فى شريعة ولا بقاء لدين ، وان احتواه الكتاب ، وحفظته كله أو أكثره صدور قوم كثيرين أو قليلين ، فالاسـلام يقوم على ان الجماعة هى ديدبان الحقوق وحاميتها .

وقد بين الرسول هـذه القاعدة الكبرى فى أربعة احاديث هى ، معالم الطريق الى حماية حرية الأفراد ، وصيانة الحرمات ، واقامة حكم القانون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا عن يديه ، يوشك ان يعمكم الله بعذاب » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« اذا عجزت أمتى عن ان تقول للظالم ، يا ظالم ، فقد تودع منها » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الجهاد ، هو كلمة حق عند سلطان جائر »

وقال صلى الله عليه وسلم :

« سـيكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولا أنا منه . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« يكون أمراء قد غشاهم غواش أو حواش من الناس يكذبون ويظلمون ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ،

واعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه . ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه » (١) .

فالجماعة الانسانية ليست مجموعة من أفراد ، كل منهم صالح فى ذاته ، بل انها جماعة ذات شخصية خاصة بها ، منفصلة عن الافراد ، تمارس حقوقا فوق حقوق الأفراد ، وهى حماية هذه الحقوق كلها وبطبيعة الحال يقوم بهذه الحماية عصبة من هذه الجماعة ولكنها مستندة الى المحيط الواسع من الافراد ، فالضرب على يد الظالم ومصارحته بأنه ظالم ، وعدم اعانتـــه على الظلم ، ومقاطعته ، وعدم الدخول اليه ، هى واجبات لا يتخلف المسلمون عن أدائها ، حتى يصيبهم العقاب ، فينزل بهم عذاب عظيم .

وكما أن هذا هو رأى الاسلام فى الاعتداء الاكبر على الحريات وحقوق الجماعة ، فانه رأيه فى الجرائم التى تقع من أفراد على أفراد ، قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على كل من حضر ، حين لم يدافعوا عنه »

فالسبيل الى دفع الظلم ، هو مجاهدته والتصدى له وتنشئة الناس على المســـارعة الى نجدة المظلوم ، ورفض ما ينزل به ، كأنه نازل بهم .

وفى هذا المعنى الحديث المشهور :

« انصر أخاك ظالما ، أو مظلوما » ، فسأل المسلمون : « كيف ننصره ظالما ؟ » فقال الرسول : « برده عن

(١) أورد هذه الاحاديث بترتيبها خالد محمد خالد فى انسانيات محمد

الظلم » .

فالحياة فى المجتمع الانسانى مجاهدة متصلة ، وحركة دائمة ، وسهر لا ينقطع ، وقد أمرهم الحديث :

« من راى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الايمان » .

ولكن هذا الايمان الذى يبدو ضعيفا ، ان كان ايمانا حقا ، لا يلبث حتى يقود المؤمن الي المقاومة باللسان ، التى لا تلبث أن تقود الى المقاومة باليد ، فما يكره الناس حقا شيئا بقلوبهم ، حتى يصبحوا ألد أعدائه جهرا ، وان اجتمعت قلوب الجماعة على كراهية اتقدت حميتها ، وقويت ارادتها ، وتدفقت جموعها كالسيل العرم .

اما الظلم ، فقد صوره الرسول فى أقبح الصور ، ونفر منه المسلمين .

وحسبنا من احاديث الرسول الكثيرة عن الظالم حديثه عليه الصلاة والسلام :

« اتقوا الظلم ما استطعتم ، فان العبد يجىء بالحسنات يوم القيامة ، يرى أنها ستنجيه ، فما زال عبده يقول : « يارب ظلمنى عبدك مظلمة » ، يقول الله : « امحوا من حسناته » وما يزال كذلك حتى مايبقى له حسنة » .

ولذلك ما أطال رسول الله صبره على أحد ، ما أطاله على الذين ظنوا انهم ظلموا . قال اعرابى للرسول : « يا محمد .. هل هذا المال مال الله أم مال أبيك ؟ » فيغضب عمر ، ويوشك أن يضربه ، فيرده الرسول قائلا : « دعه يا عمر .. ان لصاحب الحق مقالا » .

وليس هذا الا صدى لقول الله تعالى :

«لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم» (١)

للظالمين أن يرفعوا أصواتهم ، وأن يجأروا بالشكوى، وابواب السماء تتفتح لها . ألم يقل الرسول :

« دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : « وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

٧ ـ كان للمسلمين الحرية فى ابداء رأيهم فيما ينزل عليهم من الاحكام

لقد رأينا الاعرابى يقول للرسول : « أهذا المال مال ابيك ؟ » فيغضب عمر ، ويهم بضربه ، فيرده الرسول ويقول اعرابى آخر : « اعدل يا محمد » ويكررها ، فلا يزيد الرسول عن قوله : « ويحك .. من يعدل ان لم أعدل أنا ؟ » .

وعن أنس ، قال : مشيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فادركه اعرابى فجبذه جبذة شديدة ، حتى نظرت الى صفحة عنقه وقد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جبذته ثم قال : « يا محمد ! مر ، لى من مال الله الذى عندك » فالتفت اليه وضحك ، ثم أمر له بعطاء .

فالمسلمون كانوا يثيرون الرأى فيما يقوله الرسول ، وفيما يفعله حتى ولو كان تشريعا ، وقد مر بنا أن عمرا استنكر أو استفسر كيف يصلي الرسول على امرأة زنت ؟ . وفى القرآن امثلة كثيرة على هذا الجدل الذى كان يقوم بين المسلمين وبين الرسول ، وقد

(١) النساء ـ ١٤٨

حدثتك عن سورة المجادلة ، وكيف نزلت فى خولة بنت ثعلبة الذى طلقها زوجها طلاق الظهـــار فذهبت الى الرسول تشكو اليه وتجادله حينما قال لها الرسول ان الوحي لم ينزل بشيء فى حالها .

فالمشرع كان بين أيدى الناس ، يسألونه ، فان أجاب لم يقتنعوا بالجواب ، بل الحوا فى عرض شكواهم ، وجادلوا فى الجواب الذى سمعوه . وهذا أساس من اسس الشرع فى الاسلام ، وخاصـــة من خصائصه ، فليس التشريع فى الاسلام أمرا يصدر من أعلى ، وينزل بالناس كما ينزل بهم القضـــاء لا يملـكون معه الا أن يستسلموا له ، ويذعنوا .. ان التشريع فى أغلب الأمر من صنعهم أى هو خلاصة ما يشكون منه وما يفكرون فيه ، وما ينطقونه لفظا بعد أن يصفى وينقى ويتخلص من شوائبه .

٨ ـ انه تشريع متطور

قد مر بنا ان التشريع الاسلامى جاء متدرجا يلتمس أسباب الوصول الى النفس ، يهيؤها لأحكامه ، ولا يشتد فى فرض أحكامه حتى بعد أن تستقر ، وهو اذ ينفذها ، لا ينفذها كالجلاد الذى يحسب المجرم شاه تذبح وتسلخ ، على أن الشاة المذبوحة عند الاسلام لها حق وكرامة . فقد قال رسول الله : «احسنوا الذبحة»

ولـكنه الى جانب ذلك كله لا يثبت على الحكم ان ظهر من دواعى التطوير والتعديل ما يقتضى العـــدول عنه او تعليقه .

ومن الثابت أن النبى عليه الصلاة والسلام أوقف حد السارق ، بل الحدود كلها ، خلال الحرب ، وكان ذلك خشية ان ينتقل السارق الى صفوف الأعداء هربا

من القصـــاص رغم ورود الآية المبينـــة لحد السرقة « والسارق ، والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، فقد قال الرسول : « لا تقطعوا الايدى فى السفر » (١) .

ومن الأمثلة التى تذكر تدليلاً على هذه الميزة فى التشريع الاسلامى ، أن الرسول كان قد نهى عن ادخار شيء من لحوم الاضاحى التى تذبح فى العيد ، ولكنه عاد يقول : « كلوا وتصدقوا ، وتزودوا » .

وقوله عليه الصلاة والســـلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها » .

وليس أقبح من تشريع جامد نشأ فى ظروف ، ثم تتبايع الأدلة على سوء حكمه ، أو على عدالة الحكم فى مبدأ نزوله ، ثم لم تلبث الظروف أن تتغير حوله ، ففقد مبرره ، واستحال ظلما وتعسفا .

والتشريع الاسلامى لم يكف عن ادخال التطوير على احكامه بوسائله المعروفة بمصادر الاحكام الشرعية من اجماع وقياس، ومن استصلاح واستحسان، واستصحاب وسد ذرائع ، فبقى تشريعا عصريا يساير تطور الحياة وينظم ما يجد من المؤسسات والأنظمة ، وما ينشأ فى كل المجتمعات الكاملة من علاقات انســانية يبـــدو أنها جديدة تماما وهى فى واقع الامر فروع لاصول قائمة ، واسماء مستحدثة لمسميات معروفة .

ولــكن هذا التطور نبت فى البـــذور التى القـــاها الرسول المشرع الاول صلى الله عليه وسلم ، فلو لم يكن مؤمنا بالتطور وراغبا فيه ، بل وداعيا اليه ، لجمد التشريع الاسلامى ولما جرؤ احد من الصحابة فى أيامه

---

(١) رواه ابو داود فى سننه

ولا فيما جاء بعده من الايام على التأمل والتفكير فى الاحكام المقررة فيما يجب أن يدخل عليها من تغيير وتطوير ، ولا فيما جد من أمور لا حكم لها فى الكتاب أو السنة ، ولا فيما أجمع عليه أصحاب الرسول ، وتابعوهم .

الكسب غير المشروع في الإسلام

— ١ —

قانون الكسب غير المشروع صدر ليكون حماية فعالة للمال العام من النهب والسطو ، وسياجا منيعا للأداة الحاكمة ، من أن تسقط فى يد المرتشين والمتجرين بالنفوذ والعاملين على أن يجعلوا من محاباة الأهل والأصدقاء قانونا تقوم عليه أداة الحكم وتستوحيه .

ولقد طبق أجدادنا هذا القانون كأجمل وأقوى ما يكون التطبيق الصادق المخلص لمبادىء الحكومة الصالحة ، القائمة على مراقبة الموظفين الكبار ، وتقويم ما اعوج من أمرهم وأخذ الفاسد منهم بالشدة والضرب على الأيدى .

وقد كانت نقطة البدء فى تطبيق قانون الكسب غير المشروع انخلفاء رسول الله كانوا يطلبون من الرعية أن تؤيدهم ما استقاموا وأن تقومهم اذا ما انحرفوا ، فلما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أحد المسلمين ، أن المسلمين سيقومون اعوجاجه بحد السيف حمد الله ، متهللا فرحا ، أن جعل من المسلمين من يهدده بحد السيف اذا حاد عن الطريق السوى ، وخرج على ما تمليه عقيدة المسلمين على الحاكم ، من تجرد للعمل العام ، وضبط للنفس ، وانكاره للذات ،

وتضحية بالراحة الشخصية ، فلا ضمان لاستقامة الحاكمين الا بيقظة المحكومين .

والامثلة على صراحة الدستور الذى فرضه عمر بن الخطاب على ولاته وعماله فى الامصار والعواصم الاسلامية ومراقبة أعمالهم فيما يعلنون وفيما يضمرون تملأ صفحات باهرة من تاريخ الانسانية .

كان ثانى خلفاء رسول الله يقول للمسلمين :

اذا استعملت منكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ايبرىء ذلك ذمتى ؟

فيقول أصحابه : « نعم ! »

فيقول : « كلا حتى انظر فى عمله ، اعمل بما أمرته ام لا »

ثم يقول :

« أيما عامل لى ، ظلم احدا وبلغتنى مظلمته فلم اغيرها فانا ظلمته »

وكان يرفض ان يعين فى المناصب من يسعون الى هذا التعيين لان من يسعى الى وظيفة يغلب أن يكون من هؤلاء الذين ينظرون الى الوظيفة كسبيل الى جر المغانم والكسب الحرام . أما من يعينهم هو من الحكام فكان يقول للواحد منهم : « لا تركب دابة مطهمة ولا تلبس ثوبا رقيقا ولا تغلق بابك دون حوائج الناس » .

وكان يحرم على نفسه أن يتقبل الهدايا من الرعية أو من الحاكمين . أهدى اليه يوما أبو موسى الأشعرى سجادة فالقاها فى وجهه وقال :

« وما حاجتنا الى هدية تهديها الينا »

وكان يحرم على الولاة والعمال بدورهم أن يتقبلوا هدايا الناس ويقول لهم ما قاله الرسول عليه السلام .

ومعنى هذا القول ، هذه هدايا لاتعطى لكم لأشخاصكم ، بل تعطى طمعا فى جاهكم والتماسا لممالأتكم . فليقعد أحدكم فى داره ولير أيهدى اليه أحد شيئا ؟..

وكان يأمر ولاته أن يعودوا الى دورهم نهارا حتى يسهل على النـــاس أن يروا بأى شىء يعودون ، فلا يتخذون من الليل سترا يخفى عن الناس ما جمعوا من وراء ظهر القانون ، وكان يرصد على الحكام الرقبـاء وكان يتقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم وعليهم شهود ، فاذا ارتاب فى احدهم استعان بالحيلة ليكشف حقيقة أمره وقد روى أن أبا سفيان عاد الى المدينة بعد أن زار ابنه معاوية والى الخليفة فى الشام ، وجاء أبو سفيـان الى عمر مسلما فقال له الخليفة : اجزنا ، أى اهــد الينا شيئا مما عدت به . فقال أبو سفيان : ما أصبنا شيئا فنجزيك . فمد عمر يده الى خاتم فى اصــبع أبى سفيان فخلعه ، ثم أرسله الى زوجة أبى سفيان فى دارها مع رسول ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : أنظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما فما لبث الرسول أن عاد بخرجين بهما عشرة آلاف درهم فأودعهما عمر رضى الله عنه فى بيت مال المسلمين .

وكما كان يشتد فى مراقبة ولاته ، كان يشتد فى محاسبة أولاده وذوى قرباه . وقد روى انه رأى يوما ابلا سمينة ، فقال : لمن هذه الابل؟.. فلما علم أنها لابنه عبد الله صادرها لحساب بيت مال المسلمين ودفع لابنه ثمنها قائلا : ان المسلمين كانوا يدعون هذه الابل ترعى كلأ المسلمين رعاية لى فخذ ما دفعتــه من الثمن فيها واضف الربح للمسلمين

بمثل هذا تصبح القوانين أداة حية لتقويم الحكام وتربية المحكومين وبغيره لا تؤمل فى حكم صالح ولا فى رعية يستقيم لها أمر ويصلح لها حال .

- ٢ -

وقانون الكسب غير المشروع ، قانون تلجأ الأمم اليه عندما تعقد العزم على أن تطهر اداتها الحاكمة من الضعف والعجز .

والغاية من هذا القانون أن يكون من حق سلطات التحقيق فى الدولة أن تسأل الموظفين فيها وأصحاب السلطة ، عما يطرأ على ثروتهم من زيادة فان بينوا مصدرها ودللوا على خلوها من شوائب الرشوة أو الابتزاز أو الاتجار بالنفوذ أو السطو على المال العام ، بقيت لهم هذه الزيادة ونجوا من العقاب واستقروا فى مناصبهم . أما اذا عجزوا عن ذلك تبين بغير شك انهم خانوا الأمانة التى اؤتمنوا عليها وان نفوسهم سولت لهم ان يطمعوا فى المال العام وأن يضيفوا بعضه الى مالهم ويدخلوه الى ذمتهم ، فحق عليهم أن يردوا ما اخذوه بغير حق وأن ينزل بهم العقاب . ثم أن يفسحوا الطريق لموظفين غيرهم أمناء يرعون الله فى المال الذى يوضع فى رعايتهم ، والنفوذ الذى يسبغ عليهم ، وجاه الوظيفة التى تسند اليهم والحديث حول هذا القانون يثير فى رأسي خاطرين ضمن خواطر كثيرة ، يثير فى رأسى خاطرة مؤداها انه كما ان الانسان لا يحيا بالخبز وحده كذلك فان الاصلاح لا يتم بالقانون وحده وهذا قول رددته فى اكثر من موضع فى هذا الكتاب .

أما الخاطرة الثانية فجملتها ان قانون الكسب غير المشروع ـ كما قد رأيت ـ قانون قديم فى حياتنا العامة

طبقه المسلمون فى صـدر الاسلام ، فقويت دولتهم ، وعظمت شوكتهم ، وسلمت لهم عقيـدتهم ، وحالفهم التوفيق فيما يقولون وفيما يفعلون .

أما ان القـانون لا يحقق الاصـلاح وحده فحقيقة تواترت على صحتها الشـواهد . فالانسان هو الذى يصنع القانون وليس القانون هو الذى يصنع الأنسان . فالقانون الصالح ، كالسيف الباتر ، لابد له من ذراع قوية تبسط سلطانه ، وتفرض احكامه ، وتخيف به الخارجين على المجتمع والمهددين لأمنـه وراحتـه ، والطامعين فى مرافقه وثروته ، فكم من قانون جيـد صدر ولم يحس به احد فلم ينتفع به الناس . والحاكم وحده ، وان صلح أمره ، وسلمت نيته ، لا يستطيع أن يحق الحق ويرد الباطل فلا بد أن يكون أكثر الناس مع الحق لتعلو كلمته ، وترتفع رايته ، وعندها سيجد الشعب فى الحاكم الصالح السند والعون ، وسيجد الحاكم فى الشعب القوى اليقظ الحماية والحافز .

ولا ادل على ذلك من أن القرآن الذى جمع العرب المبعثرين فى حواشى الجزيرة العربيـة ونواحيهـا ، ووحدهم بعد تفرق فى أعطافها واطرافها ، ثم أقام لهم حضارة زاهرة ، وقادهم فى دروب العلم ومسالكه هو نفس القرآن الذى كان ولا يزال يتلوه المسلمون الذين انتهك الاستعمار استقلال أوطانهم وفرض عليهم جهل الخرافة وفقر الـكسل وذل الخوف . مع ان القرآن باق على حاله منذ انزله الله على نبيه محمـد صلى الله عليه وسلم لم يتغير منه حرف ولم يغادر مكانه فيه لفظ

وقد كان دستور مصر فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٥٢ ينص على ان الامة مصـدر السلطات ،

وان الملك يملك ولا يحكم ، وان أوامره الشفوية والكتابية لا تعفى وزراءه من المسئولية ، فلم تعرف الامة سلطانا ولم يحترم الملك لها حرمة ، ولم يعص الوزراء لهذا الملك أمرا ، فان اردنا ان نحرم الكسب غير المشروع على الموظفين فلا يكفى أن نصدر قانونا يحرم هذا الكسب الحرام بل يجب أن يكره المواطنون هذا اللون من الكسب فلا يمهدون سبله لاصحاب السلطة ، ولا يتواطئون معهم على تناوله ، ولا يكرمون الذين يملأون بطونهم منه ولا يتنافسون على بذل المودة لهم ، حتى اذا ما ادار هؤلاء ظهورهم طعن المواطنون فيهم ، وأطلقوا السنتهم •• فالقانون هو ما نريد وليس ما نكتبه على الورق ونقول للقضاء طبقوه •

نظام الحكم في الإسلام

لا خلاف فى أن القرآن الكريم لم يورد بيانا عن نظام الحكومة التي يرتضيها أو يأمر بها الاسلام ، صحيح أن الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى ، والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن فى القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنه لكراهية أو محبة ، ولكن فيما عدا ذلك لا يجد الباحث من الاحكام ما يستطيع أن يقول معه ان الكتاب قد رسم نظاما للناس يلزمونه فى اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، واظهار ما يجوز لكل منهما وما لايجوز ، ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيم سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم .

جرت أكثر الاقوال فى الجواب على هذا السؤال بأن مرد ذلك الى كون الاسلام نظاما صالحا لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الانظمة الانسانية تأثرا بالتطورات التى تأتى بها الايام ، والتى تنبهت فى البيئة . فما يصلح للناس فى عهد يضيقون به فى عهد ثان ، وما قد ينفعهم فى بلد ، قد لا تستقيم به امورهم فى بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ضمن قواعدها « تغير الاحكام بتغير الزمان والمكان » وقد قال ابن خلدون فى مقدمة كتابه : « ان أحوال العالم والامم وعاداتهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهج مستقر . انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال » .

وعلى الرغم من ان هذه الاجابة صحيحة فى جملتها ، الا ان ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم ، هو أسلوب الاسلام وطريقته فى التشريع . فأساس التشريع الاسلامى هو التربية الخلقية واقامة رقابة الضمير الانسانى ، بديلا من رقابة الدولة بشرطتها وعسسها . فالاصل فى الاسلام هو محاسبة الانسان لنفسه مستهديا بأحكام الدين ومنها الحديث الذى يأمرنا ان نعبد الله كأننا نراه ، فان لم نكن نراه فهو يرانا .. فرقابة الحكومة أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الاسلام على أن ينشيء مجتمعا تحكمه الضوابط الخلقية فاذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعا يسود علاقات أفراده الصدق والامانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمسارعة الى الخير ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم أو حكومة فاسدة أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاءة .

ولقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الاسلامية الى الحكم اذ قال : « كما تكونوا يول عليكم » فنظام الحكم أشبه شيء بالسائل ، يوضع فى الاناء الملون فيأخذ لونه ، ذلك لان نظام الحكم اخلاق الشعب ، وأما

الدساتير والقوانين فلا تقيم حكما ولا تغير من شئون الناس شيئا .

لذلك احتفل الاسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، ففرض على الراعي وعلى الرعية فروضا يعلم الاسلام انها من الحكم جوهره ، وانها اذا روعيت استقام . أما اذا أهملت وقفت النصوص ومعها البنادق والمدافع والمحاكم والسجون عاجزة ، لا تقدم خيرا ولا ترد شرا .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلا رائعا ومروعا فى الوقت نفسه ما أجدرنا أن نتعظ به فلقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت خطرا داهما لأمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقا على كل مرتكب لهذه الجريمة ونفذت عقوبة الشنق علنا بهدف الردع فتزاحم الناس فى الميدان الذى أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم الفرصة ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ومشارطهم السريعة فى جيوب المشاهدين ، فنشلوا فى ساعة ما كانوا يعجزون عن نشله فى أيام .

وليس فى الوسع ان نسرد نصوص الدستور الاخلاقى الذى فرضه الاسلام على الراعى ، ولكن نستطيع أن نعيد عليك هنا ما أوردناه فيما سبق من الكلام مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » . وقوله عليه السلام : «من ولى من أمر الناس شيئا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة » . وأمره الولاة أن يحسنوا اختيار اعوانهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضي لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » ومن جهـــة أخرى فرض الاســــلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم . فقد قال الرسول الـكريم : « من أعان ظالمـا بباطل ليدحض به حقا ، فقد برىء من ذمة الله ورسوله» وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى فى شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل ، ومن سيقوم بتربية الشعب ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ، ينميه ، ويمنع عوادى الزمن عليه . والجواب على هذا ان الله فرض على جماعة المسلمين ان تكون منهم دائما طائفة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فاذا نسيت الجماعة ذكروها ، واذا صلحت أعانوها ، واذا خافت قووا ايمانها ، واذا اندفعت ســــددوا خطاها ، سدد الله خطانا .

واجبات لا حقوق

لا يعرف الشرع الاسلامى اصطلاح « حقوق الافراد » الذى يستعمله فقهاء العصر الحديث ، حينما يريدون أن يتحدثوا عن الحريات ، كحرية العقيـــدة ، وحرية التعبير عن الرأى ، وحرية الاجتماع والانتقال ، وحرمة المسكن ، والمراسلات بأنواعها بريدية وبرقية ، وحرمة الجسم الانسانى من القبض أو التفتيش ، أو الاعتقـال ، الا بناء على قانون محدد لجريمة ، سـابق على اجراء التحقيق او الحبس .

والشرع الاسلامى لا يعرف هذا الاصطلاح ، لا انكارا لهذه الحقوق ، ولا غضاً من شأنها ، ولا ادخالها لها فى غيرها من الحقوق والحرمات، بل لان الشريعة الاسلامية ليست سوى تعبير عن عقيدة الاسلام ، فالاصل الذى تصدر عنه الشريعة ، والمعين الذى تأخذ عنه هو الدين والدين سبن الفرائض والواجبات والتكاليف ، والشريعة تبين احكام هذا كله ، بفروعه وجزئياته . فالفقهـــاء المسلمون حينما يقولون : « حقوق الله » و « حقوق العباد » لا يعنون ما يعنيه القـانون الحديث بحقوق العباد أو الافراد .

والاسلام بفرض التكاليف والواجبات على الافـراد أو العباد ، ارتفع بما نسميه بحقوق الافراد ، الى مستوى

لم تبلغه قط ، وأسبغ عليها ضمانات تقيها من العبث ، ومن الاهمال معا ، وما جرى عليه الاســلام ، هو ما أثبته التاريخ على مدى عشرات من القــرون ، وما تزال تثبته وقائع حياتنا الجارية .

فحقوق الافراد ، لم تصبح حقـــوقا ، الا بعد أن اعتبرها الناس واجبات ، عليهم أن يؤدوها ، وأن يبذلوا في سبيل أدائها أرواحهم ودماءهم ، وأن يستبسلوا في الدفاع عنها ، بعد استخلاصها واستنقاذها من طغيــان الطغاة ، فالحقوق التي قررها الماجناكرتا « الميثـــاق العظيم » لم تصبح حقوقا الا بعـــد ثورة الامراء على « جون » ملك انجلترا ، سنة ١٢١٥ و « قائمة الحقوق » لم تعلن سنة ١٦٦٨ الا بعد ثورة الشعب الانجليزى على الملك جيمس الثاني ، وحقـــوق الافراد فى الولايات المتحدة لم تصبح كذلك الا بعد ثورة سنة ١٧٦٤ التى أعلنت هذه الحقوق فى سنة ١٧٦٥ كما أعلنت الحرب ضد بريطانيا سنة ١٧٧٥ وأعلنت الاستقلال فى ٤ يولية سنة ١٧٧٦ ، أما فى فرنسا ، فكلنا نعرف أن أعلان حقوق الانسان فى ٢٦ من اغسطس سنة ١٧٨٩ كان بعد ثورة الشعب الفرنسي التى أسقطت الباستيل فى الرابع عشر من يولية فى تلك السنة .

ولا يزال الجدال يدور بين فقهاء القانون الدســتورى حول الصوت الانتخابى ، وهل هو حق أو واجب وقد خيل الي بعض الفقهاء انهم قادرون على الخروج من هذا المأزق اذا قالوا بأن الصوت الانتخابي هو وظيفة .

ومن ثم كان راى المشرع الاسلامى فى أن ما نسميه الآن حقوقا للانسان هو فى حقيقته واجبات ، هو راى أصاب الحقيقة . وبتقرير هذه الحقيقة تيسر ان توضع

هذه الحقوق فى كفالة الضمير الانسانى وحراسته ، وهى أعلى كفالات الحقوق الانسانية ، وأعظم أنواع حراستها ، فكل ما تسجله الدساتير من حقوق ، يصبح حبرا على ورق ، ما لم يجد من يطالب به ويتمسك بادائه .

ولقد قرز الشرع الاسلامى للتهاون فى ممارسة هذه الحقوق ، أو فى اداء هذه الواجبات ـ كيفما شئت ـ عقوبات دنيوية ، وانذر بعذاب فى الآخرة عظيم .

قال الله تعالي : « ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيما كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى فى الارض ، قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » .

وانظر الى الرسول يقول :

« اذا رايتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » .

فليس المسلم حرا فى أن يقبل الظلم أو يرفضه ، يستنيم اليه ، أو يثور عليه ، بل ان واجبه أن يقاومه وان يطلب حريته ، والا جوزى وعوقب .

ولا يقتصر مجال تطبيق هذه القاعدة الكبيرة ، على الشئون الهامة التى نسميها علاقات الحاكم بالمحكومين بل انها قاعدة تنطبق على كل حالة يقع فيها العدوان .

فقد قال رسول الله عليه السلام : « لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدافعوا عنه » .

فمجتمع الواجبات لا يعرف هـذا الموقف الضعيف الفاتر ، الذى يقول فيه الفرد : « أنا لم أذنب ، فلا

جريرة على ، ويترك الآخرين يذنبون » .

ولا يزال فى أحاديث الرســـول ، ما يجلو هـــذه الفلسفة ويزيدها وضوحا . فالرســـول قال : « ان لبدنك عليك حقا » وجسم الانسان أحق الاشياء أن يكون ملكا خالصا للانسان لا ضـــير عليه فى استعماله كيف يشاء ، لانه اذ قرر لبدن الانسان حقوقا عليه ، جعل هذا الجسد وديعة بين يدى صاحبه ، يساءل عليهـــا ، ويحاسب ان هو اهملها ، أو عرضها للتلف .

ومن ذلك ما يقوله الرسول : « من لم يأخذ برخصنا فليس منا » كما قال : « ان الله يحب أن تؤتى رخصة ، كما يجب أن تؤتي عزائمه » فالرخص والتيســـيرات والتخفيف على الانسان فى المرض والسفر والضعف ، اليست منحا شخصية يتمتع بها ان شاء ، ويدعها ان أراد ، بل هى واجبـــات تؤدى ، وفروض يقوم بها الانسان ، أحب أو كره .

ففى مجتمع الواجبات تصبح الحقوق حدودا تلزم ، وفروضا تؤدى ، والانسان ليس مخيرا فى أن يأخذها أو يدعها ، ولا فى أن يقبل الظلم او يرفضه ولا فى أن يستسلم للفساد أو يقاومه ، ففى مجتمع المسلمين ، أى مجتمع التكاليف يكون طلب الحـــرية وممارستها ، وطلب الاصلاح والسعى اليه واجبا وفريضة .

إصنع ما شئت

تسعد النصوص ، وتشقى كما يحظى الآدميون بالسعادة حينا وتحل بهم الشقوة حينا آخر .

فاذا أقبل الدهر على النص كان سند الاقوياء المقبلين على الحياة ، الذين تفيض نفوسهم أملا وثقة ، المبتكرين المجددين الذين تطيب لهم المجازفة ويثقل عليهم الركود والاخلاد الى الراحة . أما اذا أدبر الدهر ، أصبح النص نفسه ، بحروفه التى عرفها الاجداد ، سندا للضعفاء المتوارين والخائفين الذين يؤثرون السلامة والعافية .. خذ مثلا هذا الحديث النبوى : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » . أليس هو دعوة صريحة وقوية الى نبذ التردد ؟.. أليس هو دعوة الى الاقدام بغير وسوسة أو تحرج ؟ .. انه يخاطب المؤمنين ليعلن لهم انه لا يرد الانسان السليم المعافى ، نفسا وجسدا من عمل الا أن يكون فيه ما يجافى الحياء ذلك ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء » . ولانه قال : « الحياء لا يأتى الا بخير » . فاذا اطمأن الانسان الى أن ما يساوره من فكر لا يخدش حياء ، ولا يخرج على قانون الاخلاق وجب عليه أن يقدم : ثابت القدم غير مزعزع ولا مضطرب مستوحيا قلبه ، مستهديا بضميره عملا

بالحديث : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك » .

ولكن ما لبث هذا الحديث المثير للهمة ، الملهم بالقوة ، أن استحال توبيخا لمن يدعون لانفسهم ما يتصوره الناس من غير حقوقهم . والتنديد بالادعياء والمجترئين على الحدود المقررة ، امر جميل ، لا ننكره ولكن المعنى الاول ، المعنى الداعى الى العمل والباعث على الهمة ، اكبر واعظم ، والمجتمع القوى ، يتبناه ويرضاه ، فما أكثر ما تكون الحدود المفروضة فى المجتمع المريض طالمة خانقة للعزائم قاذفة بالخوف الى القلوب .

وبمثل هذا المنطق ، فسرنا الآية الكريمة : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . فقد فصلنا عجزها عن صدرها وجعلنا آخرها شعارا نواجه به كل دعوة الى العمل الذى تحف به بعض المخاطر ، والذى يبدو مجهول العاقبة . وان كان دافعه خير الجماعة . كما واجهنا به كل محاولة للجهر بالرأى السليم الذى تقضى به مصلحة الامة « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » هى النصيحة السحرية يلقى بها الآباء الى الابناء والمربون للناشئين ، والكبار للصغار ، والمسئولون لطالبى التجديد . فباتت هذه الآية السطر الاول فى دستور الخوف والانكماش والرضى بالواقع وتزيين القبيح ، وتبرير الباطل .

مع أن هذه الآية فى جملتها دعوة الى الانفاق ، ولا ينفق الناس أموالهم فى سبيل الدعوة التى يؤمنون بها حتى يكون المال هو أقل وأتفه ما يبذلونه ، لان الانسان لا يخرج عن ماله العزيز عليه ، الاثير عنده ، الا بعد أن

يكمل ايمانه بالدعوة ثم يسهل عليه أن يستشهد فى سبيلها وأن يصبر على كل ما يأتيه من ورائها من حرمان وتضييق وعذاب .

وقد كمل المصاب بتفسير الآيات الداعية الى التواكل التى هى فى حقيقتها دعوة مثيرة وملهمة للاندفاع فى سبيل الخير دون أن تلوى على شىء الا على ما يقضى به التدبر لنجاح العمل والتهيؤ لتوفير أسباب توفيقه : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » هو أقوى ما قيل ليحرر النفوس من ربقة الخوف ويطمئنها الى أن العمل والسعى والجهاد لن يجر على العاملين الساعين المجاهدين شرا فما يجرى فى الدنيا يجرى بناء على سنن مرسومة وقواعد موضوعة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، والحديث النبوى صريح الدلالة على هذا المعنى . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » . فقد تحدث الرسول عن الطيور التى تغدو جائعة ، وتعود الى أعشاشها ، وقد ملأت بطنها من طعام . فهو لم يتحدث عن طيور تلزم أوكارها ، ثم يأتى اليها الرزق بلا جهد ولا سعى .

والقرآن الذى وردت فيه الآية الداعية الى الانفاق واتقاء التهلكة ، وردت فيه الآيات التى تسخر من المتشبثين بأسباب الحياة المشفقين من كل حركة وسعى فقد قال الله تعالى : « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل » . « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » . « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » .

الفرد والجماعة فى الإسلام

ليس فى حياة الناس مشكلة أعقد من مشكلة الحكم استنفدت من علمائهم ومفكريهم ، ومن ساستهم وقادتهم ومن ثوارهم ومجدديهم ، الجهد والوقت ، ودفعت بهم الى حلبات حامية الوطيس من الجدل ثم قادت وراءهم الامم والشعوب الى ميادين القتال ، تسيل فيها الدماء وتطير الرقاب وتثل العروش ، وتتهاوى الحكومات .

وما يزال الناس حتى اليوم فى جدالهم وعراكهم ، وما نشهده من الحروب الدامية ، والمؤامرات التى يمسك بعضها برقاب بعض ، وما تخرجه المطابع من الكتب والصحف وما يتدفق من فوق المنابر ، من المواعظ والخطب ، ليس كل هذا الا صراعا حول نظريات الحكم من أجل السلطة .

وما ذهب اليه الفلاسفة والحكماء ، ورؤساء الدول وزعماء الفرق وفقهاء القانون ، وشراح الدساتير ، على كثرته وتنوعه وترامى آفاقه ، يمكن رده كله الى فكرتين أساسيتين : الفكرة الاولى تعلى من حرية الانسان والفرد ، والثانية تعلى من شأن الجماعة . وتعتبر الفكرة الاولى حرية الانسان والفرد ركن الزاوية فى بناء المجتمع ، وحجر الاساس فى نظام الحكم ، وأصحابها يقولون ان الحرية الفردية تدعو الى التنافس الطليق ،

والتنافس الطليق يخرج من الانسان أحسن ماعنده ، ويدفعه الى التجديد ، والاحسان ، والى الابتكار والاتقان ، والى التضحية بنفسه وماله ، اذ يحس انه صاحب أمره وولى نفسه ، وان ما يبذره من حب يحصده ثمارا ، وما يقدمه من خير ، يعود اليه أضعافا. وان حرية الفرد تزيد رخاء المجتمع وترد ظلم الحاكم ، وتقى من فساد الحكم . فالخير كل الخير فى أن تدع الناس أحرارا لا توجههم ، ولا تملى عليهم ، لا فى شئون المال والاقتصاد ، ولا فى شئون الاجتماع والثقافة .
ويسفه هذا الرأى أصحاب الفكرة الثانية فيقولون ان حرية الفرد لا تؤدى الا الى وبال . فالانسان ان ترك وحده ، شغلته مصالحه الذاتية وغلبته شهواته الشخصية ، وضحى بالمجتمع وبالناس الآخرين ، فهو يريد أن يربح ويريد أن يستأثر بأوفر رزق وأفضل مسكن ، وهو يود أن يتكلف أقل القليل من البذل وأن يعطى أقل نصيب من العمل ، ولقد جربت الانسانية الحرية الفردية فى أوربا الغربية ، فازدهرت المصانع ، وامتلأت المتاجر بالسلع والبضائع ، ولكن عماذا أسفر هذا كله ؟.. أسفر عن أغنياء يشكون التخمة ، وفقراء يشرفون على الموت . أسفر فى المدينة الواحدة عن أحياء نظيفة أنيقة ، وعن مقابر يسكنها المعوزون يعانون فى ظلمتها ورطوبتها السل وغيره من العلل والآفات .
فما هو السبيل الى حل هذه المشكلة التى هى أعقد من ذنب الضب ؟ ..

لقد انتهى الاسلام الى أنه لابد من فرد قوى حر ، لتنشأ جماعة حرة قوية وانه لابد من جماعة قوية حرة ، ليوجد فرد حر قوى . فالفرد الحر فى جماعة ضعيفة طاغية ، يستبد بالضعفاء ويستعلى على الفقراء

ويستأثر بالخير كله ويحرم غيره من أتفه متع الحياة .

والجماعة المتسلطة التى تصوغ الافراد فى قوالب وتحيلهم الى أرقام ، وتأمرهم ليأتمروا وتحركهم ليتحركوا ، ثم لا يقولون شيئا ولا يفكرون فى شىء هى المباءة الصالحة للطغاة الذين لا ترد لهم كلمة ولو اخطأوا .

اما كيف توصل الاسلام الى احداث هذا التوازن فيمكن أجماله فى كلمات قليلة .

ليس فى الكتب كلها مقدسة وغير مقدسة من احتفى بالانسان كالقرآن ، فالقرآن تحدث عن الانسان فى كل أدوار حياته . تحدث عنه وهو لايزال نطفة ، فعلقة ، ثم مضغه .. الى أن خرج للحياة طفلا وسايره فى صباه وشبابه ورجولته وشيخوخته وهرمه ، وصور ضعفه وقوته وخوفه ، وشجاعته ، وثباته وتردده ، وايمانه وكفره ، واقدامه واحجامه ، وصدقه ونفاقه ، وتهالكه على شهوات الحياة من نساء ومال وخيل مسومة ، وبذله للنفس ، وتضرعه عند النازلة ، وجحوده اذا انجابت الكارثة ، وكرم القرآن الانسان ، فنص على ان الله قد استخلفه فى الارض مع ان الملائكة انكرت ذلك لانهم يقدسون الله ويسبحون ، والانسان يسفك الدماء ويفسد فى الارض وقد استخلفه الله مع احتجاج الشيطان وتمرده . فالانسان عند الله أهل للثقة وجدير بالامانة .

ولكن القرآن الذى كرم الانسان ، هو القرآن الذى وجه الخطاب الى الناس ، فما أكثر ما ابتدأت الآيات « يا ايها الناس » فالانسان الفرد فى القرآن محل للرعاية ، ولكن الناس ككل هم الاصل والبداية

والفرد تفسح لطاقاته وقدراته ، وآرائه واجتهـــاده الفرصة ولـكن فى ظل الجماعة ومن أجلها . فالفرد فى القرآن قوى بذاته من ناحية ، وبالجماعة وللجماعة من ناحية أخرى ، والجماعة قوية بالفرد ، ولـكنها أعلى منه وأسمى ، وخير وأبقى .

ولو أردنا أن نصـور الفرد فى الجماعة الاسـلامية تصويرا يقرب لنا الصلة بينهما ، لكان البيت فى قصيدة الشعر العربية ، هو أحسن تشبيه لهذه العـلاقة . فالبيت من الشعر فى القصـيدة ، بيت كامل ، قائم بذاته ، له معناه الخاص ، والشاعر العربى ، يفتن فى تجويد كل بيت على حدة ، حتى ليمكن أن يكون هـذا البيت قصيدة بذاتها ، ولكن هذا البيت آخر الامـر ، هو وحدة ، فى كل متناسق ، وهو بها أكثر امتلاء بالمعنى، ومهما حسن وقعه فى الاذن ، وعظم قدره فى النفس ، لا يستطيع أن يخرج على سياق القصيدة ، ولا وزنها ، ولا قافيتها ، ولا يستقل بمعنـــاه عن معناها العام ، وهو يكتسب من جمالها جمالا، ومن موسيقاها موسيقى وهو يبذل لهذه الموسيقى العامة ، ولبنائها الـكامل ، ما انطوى عليه من جمال وقوة . فهو قائم بذاته ، له وجوده الذى لا يعتدى عليه ، ولـكنه جزء من كل ، ولبنة فى بناء .

تأملات في الحج

أمران كنت لا أذكرهما الا وذكرت معهما صورة رجل مريض يشكو فقر الدم ، وقد قطع شريانه ، فتتدفق دمه الغزير ، وهو ينظر اليه لا يبدو عليه قلق ، ولا يظهر على الذين حوله خوف .

اما أول الامرين : فهو تدفق مياه النيل عند مصبيه في رشيد ودمياط . فقد كنت أعرف ان المصريين يعيشون على ستة ملايين من الافدنة تنقص ، ولا تزيد مع تزايد عدد المصريين كل عام بنحو مليون من الانفس تطلب الغذاء والكساء ، وحولهم الصحراء تطلب الماء فلا تجده • تطلب الماء ، والماء يذهب سدى في ماء البحر الملح ، فما أعظم الخسارة وما أغرب أن نرى ذلك العام بعد العام ، فلا نفكر في كيف نصون هذه الثروة المبددة ولا نحمي هذا المال الضائع حتى وفقنا الله آخر الامر الى وضع حد لهذا الخسران .

أما ثاني الامرين ، فهو اجتماع الحجيج في كل عام في عرفات وما حولها . فالمسلمون منذ دعاهم القرآن الى أن يزوروا البيت الحرام « يأتوك رجالا وعلى كل ضامر » والالوف منهم تلبي هذه الدعوة فيتألف باجتماعهم مجتمع انساني لا يشبهه مجتمع آخر ولا يدانيه .

ففى الحجيج من المسلمين أقوام من اسيا واخرون من افريقيا ، وطائفة من اوربا ، وافراد من أمريكا ، وفيهم الابيض ، والاسمر ، والاسود ، والاصفر ، والسليم ، والمريض ، والشيخ ، والشباب ، والمرأة ، والرجل ، والغنى ، والفقير ، والجاهل ، والمتعلم ، وهؤلاء يتكلمون عدة لغات ، وما يقرب من الالوف من اللهجات ، فاذا قلت ان الانسانية كلها تجتمع فوق عرفات لم تعد الحقيقة ولم تبالغ .

وما يستوقف النظر أن هؤلاء يأتون لا تدفعهم حكومة ولا تحرضهم سلطة ، ولا تعينهم بالمال أو وسائل النقل هيئة ، ثم هم يجتمعون فى بلاد لا تتوافر فيها من وسائل الراحة وأسبابها ما يتوافر فى عواصم أوربا . والمدينة التى تضمهم وقد أشرفوا على المليون أو جاوزوه لم تبلغ الغاية فى تنظيم الشوارع والميادين وان كانت تحاول أن تخطو نحو ذلك . . قارن هذا بما تتباهى به العواصم الاوربية والامريكية الكبرى ، اذا انعقد فيها مؤتمر أو جرت على أرضها مباريات أولمبية ، لا يشهدها من الاجانب الا بضعة الوف ، وكلهم من الاغنياء المتعلمين المتحضرين . لكن هل يفيد المسلمون من هذا الاجتماع العالمى الضخم بكل ما ينطوى عليه من منافع جليلة وما يتيحه لهم والعالم من فرص اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ؟

لقد قلت يوما ان الحجاج يجب أن يستقبلوا فقيل لى على الفور : نحن نبذل كل ما نملك لنحسن استقبالهم . فهم عنى شىء ، وأردت شيئا آخر . قصدت أن نعين الحجاج القادمين من كل قطر على أن يجتمعوا مع اخوانهم فى هذا القطر ذاته ، ويتحدثوا فى شئون

دينهم ، وشئون الوطن الذى جاءوا منه فاجتماعهم فى مكة فرصة لن تتاح لهم بعدموسم الحج، فالاندونسيون الذين تتكون بلادهم من ثلاثة الاف جــزيرة يجب أن يجتمعوا معا ، والباكستانيون الذين ينتسبون الى وطن انشطر الى اقليمين : أحدهما فى الشرق ، والآخر فى الغرب ، يفصـــل بينهما عدة آلاف من الكيلومترات ، يجب أن يجتمعوا سويا ، والهنود المسلمون الذين تتسع بلادهم حتى تكاد تبلغ مبلغ القارة مســاحة يجب أن تهيأ لهم فرص اللقـــاء وهم فى موسم الحج . ثم لابد أن يجتمع من كل قطر مع الحجاج المســلمين زعماؤهم ولا أقصد بالزعمـاء الامراء والملوك ، ورجال الدولة ، انما أقصد علماءهم ، وأســاتذتهم ، وكبار تجــارهم ، وصحفييهم ، ورجال المال والاقتصــاد ، والاطبــاء ، والمحامين ، وأســاتذة الجامعات منهم ونطرح عليهم مشكلات العالم الاسلامى ، وندعوهم الى اتصال بعضهم ببعض ، ثم لابد أن تصدر الهيئــة المشرفة على الحج نشرة فى أعقاب كل موسم حج تبين فيها عدد الحجاج والاوطان التى قدموا منها ، والمحــافظات والاقســام الادارية التى ينتسبون اليها فى هــذه الاوطــان وما استطاعت الهيئة ان تحصل عليه من بيانات عن عدد مدارس ومساجد وجمعيات المسلمين فى هذه الاوطان وصحفهم ودور نشرهم ، وبالجملة كل صور نشاطهم . وان ما نستطيع أن نجنيه من هذا المهرجان الانسانى الضخم اكثر مما نتخيل والعالم الذى مزقته الخلافات ولا تزال تهدده الحروب فى أشــد الحاجة الى هــذا الجهد الانســانى الذى يدعم الســلام ويقوى فرصه ، وينفى الحرب ويسد الباب فى وجهها .

إعجاز القرآن

تكلم الفقهاء والعلمـــــاء فى اعجاز القرآن ، وبحثوا ما اذا كان سر هذا الاعجـــــاز لفظ القرآن ونظمه ، أو معناه ، أو كشفه عن انباء الغيب ، أو رفعه الاستار عما تضـــــمره نفوس الاعداء من الاسرار وما تطويه من شرور .

ويقول السـيوطى فى الاتقان انه لا خلاف بين العقلاء ان كتاب الله معجز لم يقو أحد على معارضته بعـــد تحديه بذلك لانه كلام الله فالله تعـالى يقول : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله »

ويقول : ان الله تحداهم فى أكثر من سورة ، ونلاحظ ان التحدى يتراوح بين الكثرة الى القلة . فقد جاء فى القرآن :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثم جاء فيه : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لـكم فاعلموا انما أنزل بعلمه » .

وقال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة من مثله » .

فالتحدى وقع بالقرآن كله وبعشر سور منه ، وبسورة واحدة .

وقد اختلف الناس كما قلت فى أسباب الاعجاز ، ونوردها هنا باجمال : (١) .

١ ــ رأى من يقول ان الاعجاز سببه أن العرب تحدوا بالكلام القديم الذى هو صفة الله العلية فكلفت العرب بذلك ما لايطاق ، وبه وقع عجزها .

٢ ــ وقال النظام ان اعجاز القرآن بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم ولكن عاقهم أمر خارجى .

٣ ــ وقال قوم بل اعجازه ما فيه من الاخبار عن الغيوب المستقبلة ، كما تنبأ بهزيمة الروم بعد حين فى سورة الروم ، وتنبأ بأن النبى هو خاتم الانبياء ، وانه سيحفظ القرآن وحفظه ولم يضع منه حرف .

٤ ــ وقال آخرون ، سر اعجازه ما تضمنه من الاخبار عن قصص الاولين .

٥ ــ وقال فريق خامس ، ان اعجازه مرده ماتضمنه من الاخبار عن الضمائر « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

٦ ــ وقال القاضى أبو زيد : وجه اعجازه ما فيه من النظم والتأليف والتصريف ، وانه عن جميع وجوه النظر اعجاز فى كلام العرب .

٧ ــ وقال الامام فخر الدين : وجه الأعجاز الفصاحة وغرابة الاسلوب والسلامة من جميع العيوب .

٨ ــ وقال السكاكى : اعجاز القرآن يدرك ولايمكن وصفه .

---

(١) مختار الاتقان ص ١٩١

٩ ـ وقال بغدادى الفارسى : ان السؤال عن اعجاز القرآن ، فيه حيف على المعنى لانه ليس فى طاقة البشر الاحاطة بأغراض الله فى كلامه .

١٠ ـ وقال الخطابى : قلت فى اعجاز القرآن وجها ذهب عنه الناس وهو صنيعه فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

١١ ـ وقال الزركشى ، والقاضى عياض ما معناه : ان القرآن معجز بجميع ما سبق أو انه نظر على وجوه اعجاز كثيرة .

ولم يقتنع الفقهاء بكل هذا فاخذوا يسألون : القرآن معجز بكل قدر منه أو انه متعلق بجميع القرآن فقال قائلون : انه متعلق بالسورة طويلة كانت أو قصيرة ، أو ما يساويها فى الكلام . وقال قائلون : ان القرآن لا يحصل الاعجاز فيه بآية ، وقيل ان اعجازه يتعلق بقليل القرآن أو كثيره .

ولقد اوردنا هذا الكلام لمجرد العلم به ، لكنا نلاحظ ان المسلمين الاوائل لم تستوقفهم هذه المباحث وامثالها فهذه الكتب كلها ومصنفوها ، وهذه الآراء جميعها والقائلون بها متأخرة ، فعلى عهد الرسول والخلفاء الراشدين كان المسلمون يعرفون ان القرآن معجزة وان الله تحدى العرب أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو بسورة ، وأن شيئا من ذلك لم يحصل وانحسم الامر عند ذلك ولم يروا حاجة مطلقا لان يكلفوا أنفسهم البحث عن سر هذا الاعجاز ، فقد كان عندهم حقيقة واقعة لم يثر حولها خلاف ، ولم يشكك فيها ، وكانت لديهم حوادث حياتهم ، الى انتصاراتهم

الروحية والمادية وتسليم العرب كلهم للاسلام ، ودخولهم فيه قاطبة ، فظهر هذا الاعجاز ، ودليله الذى لا ينكر ، ثم جاءت انتصاراتهم على أعداء العرب خارج حدود جزيرتهم واستقرار الامر للمسلمين ، ونجاحهم فى كل ما تناولوه دليلا جديدا على أن هذا القرآن ، سماوى الهى ، وان ما جاء فيه لا يمكن أن يصدر عن البشر لان البشر لايستطيعون أن يقيموا نظاما باذخا وصرحا شاهقا، تتعاون وتتداخل فيه الماديات والمعنويات ، وأعمال القادة واجتهاد الائمة وتضحيات ألوف الناس وبذلهم المهج والارواح •

وما يمكن أن يخلص المرء اليه أن اعجاز القرآن كان فى واقع الامر استفتاء للمجتمع القرشى ، الغاية منه أن يتقدموا ببرنامج يدانى القرآن وأحكامه فضلا عن أن يسموا عليه أو يفضله • كان القرشيون ينكرون دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام من أن القرآن أوحى به اليه من الله وانه ليس من نظمه ، فتحداهم أن يثبتوا كذب دعواه ، بتقديم كلام مثله ، وأدرك القرشيون وأنصارهم من القبائل ان هذا التحدى عبث لا طائل تحته ، لان القرآن ليس مجرد كلام جميل رائع ، وانما هو اعلان حركة جديدة ، وعقيدة لا عهد لهم بها ، وان الدخول مع الدين الجديد فى منافسة فى هذا الميدان هى منافسة لا أمل لهم فى النصر فيها ، لانه ليس لديهم ما يقدمونه سوى نظامهم القديم ، وافكارهم الموروثة ، وعقائدهم المتخلفة عن الآباء : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » •

ولذلك تحول الصراع الى ميادين القتال •

فاعجاز القرآن ، كما فهمه المسلمون الاوائل ، هو الجدير بأن يفهمه المسلمون الاواخر ، فهو اعجاز مستفاد من الحقيقة الثابتة ، بأن العرب لم ينجحوا فى أن يعارضوه بكتاب غيره فى مثل نظمه ولفظه ، أو بلفظ ونظم آخرين ، وان المسلمين فى ظل هذا الكتاب ، وعلى القواعد التى اتى بها ، وللغايات التى رسمها ، وبالاخلاق التى شرعها ، وبالمناهج التى دعا اليها انتصروا على كل من خاصمهم وعاداهم ، وان كل ما تنبأ به تحقق ، فاعجاز القرآن يبدو أول ما يبدو ، فى انه كتاب حركة ناجحة ، بلغت من النجاح وحالفها من التوفيق ما لم توفق اليه ، أو تظفر به حركة ، استندت الى كتاب ، فلو لم ينجح المسلمون ، ولو لم يدخل الناس فى دين الله افواجا ، لما تحدث احد عن اعجاز القرآن ، ولا كلف خاطره أن يفتش عن أسراره ولراح القرآن على أحسن الفروض نصا ادبيا رائعا ، ولعل المؤرخين وقتذاك كانوا يرون فى سمو مثله ، وفى رفعة مناهجه ، سببا من أسباب فشل الدين ، واخفاق الدعوة .

فنجاح الدعوة الإسلامية ، هو اعجاز القرآن الثابت الذى لا نزاع فيه • وهو ما فطن الى بعضه الخطابى اذ قال : انه ذهب فى اعجاز القرآن مذهبا لم يشاركه فيه أحد ، هو صنيعه فى القلوب وأثره فى النفوس • فسر القرآن الاكبر ، انه خلق من جماعة ضعيفة ، مشتتة بين أطراف الجزيرة وأعطافها ، مبعثرة فى نواحيها وحواشيها ، أمة متحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة — تتناول الكل والتفاصيل — وتطيع قائدها طاعة لم يعرف التاريخ شبيها لها أو نظيرا ، فليس تأثير القرآن فى ألفاظه ، أو معانيه ولا فى نظمه أو لفظه ، ولا فيما يتبناه

به من أخبار الغيب ، ولا ما حدث به من أنباء السلف بل كل ما أحدثه فى الجموع ، وما حركه فى الامم والشعوب لا فى عهد أو عصر ، ولا فى قارة أو دولة ، بل فى أجيال بعد أجيال وعصور بعد عصور ، وفى أمكنة بعد أمكنة ، تباعدت مواضعها ، وتباينت أجواؤها . والدليل على أن هذا الاعجاز لا يرد الى شكله وعبارته ، انه يؤثر فيمن يعرفون العربية ومن لايعرفونها بين أتباعه وأنصاره ، وأنه يترك أثره فى القلوب ، اذا رتل أو جود ، على من يفهم معانى الكلمات والسور ، ومن لا يحيط بها الا لماما .

فاعجازه واضح ، فى اثره فى حياة الناس ، وفى دفعه للحوادث ، ولا يمكن أن يكون هذا كله بلفظه ولا بنظمه وانما هو بلفظه ومبناه ، وأحكامه وقواعده ، وبالاخلاق التى استطاع ان يقيمها والتى تفرد بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فصمد فى وجه الصعاب التى لا تكاد تذلل ، والمخاطر التى لم يسمع عنها من قبل وأخلاق من حالفوه ونصروه ؛ وعزروه ووقروه ، وآمنوا به ، ودافعوا عن دينه . ثم جلدهم فى الكفاح ؛ واستماتتهم من أجل العقيدة ، ولطف أخلاقهم ، وسماحة طباعهم ، وميلهم للعلم ، وحبهم للناس ؟ هذا هو اعجاز القرآن ومظهره ودليله ، فى آن ؟

موسيقى القرآن

لست أدرى هل لاحظ أحد ان أكثر المشتغلين بالموسيقى والغناء فى بلادنا ، كانوا ممن طلبوا العلم فى الازهر ولبسوا العمامة وحملوا لقب « شيخ » وحفظوا القرآن ، فجودوه ورتلوه ، وعرفوا أصول قراءاته ..؟

حسبنا ان نذكر منهم الاعلام ، أمثال سلامة حجازى وسيد درويش ، وزكريا احمد ، ومحمد القصبجى ، وأبو العلا ، وأم كلثوم نفسها ، حفظت القرآن وأدته ولا يزال أثره واضحا فى أسلوب أدائها ومخارج ألفاظها.

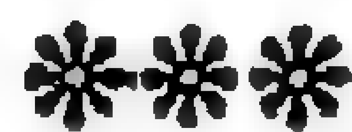
وحتى الذين اشتهروا بنظم الاغانى كانوا ممن انتسبوا الى الازهر ، فالشيخ يونس القاضى ، وبيرم التونسى أيضا ، انتسبوا الى هذا المعهد العريق ، وطلبوا العلم فيه حينا .

والمسلمون ، وغير المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، يعرفون أثر النظم القرآنى فى نفوسهم ويدركون ما يبعثه فيها من الشجى ، والنشوة الوجدانية والروحية وقد سمعت بنفسى سيدة انجليزية كانت مشغولة بفن « الباليه » وطافت البلاد الاسلامية بحثا عن موضوعات « للباليه » من التراث الاسلامى ، سمعت هذه السيدة وهى تتلو سورة «النجم» وتردد آياتها ورأسها تتمايل مع ايقاع الآيات وتقول :

« والنجم اذا هوى ، ما ضـــل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمـه شـديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سـدرة المنتهى » .

وقد خيـــل الى وأنا أسمع هـذا اللفظ القرآنى المبين ، على لسان هـذه الاعجمية التى لا تكاد تنطق القافات ، والعينات ، الا بشق الانفس انني أسـمع هذه السـورة للمرة الاولى ، وحسبت أن هذه السـيدة تصطنع النشوة والبهجة الوجدانية ، لولا ان الانفعـال بقي فترة ، غالبا عليها ، وهي تحاول أن تضبط شعورها وقد مدت يدها خلسة وفيها منديل صغير لتموه عبرة ترقرقت في عيونها .

وقد روى عن رسول الله انه قال : « زينوا القرآن بمحاسن أصواتكم » .



كما أورد ابن سعد في طبقاته ، عن « موسى الاشعرى » انه كان حلو الصوت فاذا قرأ القرآن اقتربت نسـاء الرسول حتى يستمعن لتلاوته .

وقد أورد الاستاذ زكي مبارك في كتابه «النثر الفنى» عن فواتح السور مثل « ا لم ، حم ، ا لر ، ص ، ق » ما يلي :

« كنت اتحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو فعرض على تأويلا جديرا بالدرس والتحقيق ، وفي رأيه ان الحروف « ا لم ، ا لر ، حم ، طسم » ليست

الا اشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون

« وقد كانت الموسـيقى القديمة بسيطة يشار الى الحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافيا لتوجيه المغنى أو المرتل الى الصوت المقصود ٠

وفى الـكنائس المسيحية باوربا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى ، وفى اثيوبيـا مثلا يوجـد اصطلاح موسيقى مشـابه لذلك ، فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تقابل « ا لم » فى القرآن A. O. I, فى نشيد رولان ٠

ويؤيد رأى المسيو بلانشـو أن « الم » تنطق هكذا عند الترتيل « الف .لام . ميم » فهى ليست رمزا كتابيا ، ولـكنها رموز صوتية .

ومن المحتمـل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية ومن الواضح ان القرآن لم يكن همه أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الاصوات الموسيقية ٠ فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور اشارات صوتية لتوجيه الترتيل وان أن تكون متابعة منه لترانيم الجاهلية »

ولست أريد هنا مناقشة هذا الرأى تأييدا أو تفنيدا انما أريد أن أخلص من كل ما سـبق الى أن القرآن وثيق الصـلة بالموسيقى ، وان موسـيقية ألفاظه وموسيقية نظمه وموسيقية تكويناته وأسلوب بنائه بين الاسراع والتمهل ، والايجاز والترسـل ، يبعث حب الموسيقى فى نفوس حفـاظه وقرائه ومسـتمعيه ، والمسـتفيدين به ، اذا خلوا الى أنفسهم واذا اجتمعوا وان اثارته لحب الموسيقى فى النفوس وظيفة من وظائفه الحضارية .

فالشعوب التي تعمل الموسيقى فى تكوين جماعاتها وتأسيس بنائها شعوب تتهيأ للنهوض بتبعات خطيرة وجسيمة فى عالمى الحرب والسلام • فالشعوب التى تحب الموسيقى هى اكثر الشعوب تحملا لتكاليف واعباء النظام ، فتصبح جيوشا من أعلى مرتبة . فالنظام فى الجيش هو حجر أساسه ، وركن الزاوية فى بنائه ، والموسيقى نظام محبوك دقيق ورقيق فى آن واحد .

والموسيقى ـ خصوصا موسيقى الجماعات ـ كالاناشيد والمسرحيات الغنائية الكبيرة والصغيرة ـ الاوبرات والاوبريتات ـ وموسيقى الاوركسترا ، كلها عمل جماعى يعمل فيه الجميع عملا متكاملا، فالاوركسترا اشبه شيء بالجيش والآلات المختلفة كالاسلحة المختلفة. فلا بد أن تتعاون الالات النحاسية مع الخشبية ، مع الوترية ، مع آلات النقر والايقاع ، كما لابد أن تتعاون فرق المشاة مع المدفعية مع الفرسان مع الطيران والبحرية

ولا عجب فى ان تكون المانيا هى موطن الموسيقى .

على أن الموسيقى بما تودعه فى العقول والنفوس من بذور التناسق والتناسب تهيىء هذه العقول ، لكل ما تطلبه الحضارة من ذوق ومن استجابة لاصول البحث العلمى التى تقوم على قواعد صارمة من النظام والتكامل والاتساق • لذلك لم يكن دور القرآن مقصورا على الآثار الواضحة التى نعرفها عنه من كونه اداة التبليغ وديوان بلاغة العرب ، ووعاء المعرفة الاسلامية ، وقانون المسلمين وشريعتهم الكبرى فهو الى جانب هذا كله اداة لصقل الاذواق ولبذر بذور التناسب الموسيقى فى دنيا الوجدان والفكر، وفى مجالات الحرب والسلم ، وفى ميادين العلم والبحث .

الإسراء ودلالته الإنسانية

قد يقول قائل : اذا كان الاسلام قد أكد بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل رسول سبقه تأسيسا على خلافة الانسان لله فى الارض ، وفى قاعدة الاسلام الاساسية المجملة فى قول الله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » فما بال محمد رسول الاسلام يحدث ابنة عمه هند بنت أبى طالب ، وكان نائما فى دارها بمكة ذات ليلة ما رددته هى فيما بعد قالت :

ان رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلى العشاء الاخيرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر اهبنا رسول الله ، وصلى الصبح وصلينا معه ٠

ثم قال : لقد صليت معكم العشاء الاخيرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : « يا نبى الله لا تحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك » . قال : « والله لأحدثهموه » .

فاذا كان محمد رسول الله معتصما ببشريته ، قانعا بها ، غير راغب فى النزول عنها ، أو ادعاء صفة سواها ، فما معنى تحدثه عن رحلة يصعد بها الى السماء ، بعد ان يسرى فى الليل من مكة الى بيت المقدس ، وهى الرحلة التى عرفت « بالاسراء » والتى نزل فيها فى

سورة الاسراء : « ســــبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله»

وهو الحديث الذى كاد يصدع وحدة المسلمين ، ويفرق صفوفهم ، وهز اعتقاد الـكثيرين منهم وأوقعهم فى حرج لم يعرفوه من قبـــل ، منذ دخلوا فى الدين الجديد .

لقد كان القرشيون يطلبون من الرسول أن يأتى لهم بالمعجزات ، فكان يقول : « سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

وحديث الاسراء جانب من الصـــورة التى جاء بها الاسلام وأكدها وأصر عليها ، والتى جاءت فى القرآن وهى تروى رد الرســول مرارا : « قل انما أنا بشر مثلــكم يوحى الى ، انما الهكم اله واحد » .

فحديث الاسراء كما قال الشـــاعر الباكستانى محمد اقبال هو حديث الصلة التى تربط السماء بالارض ، حديث الانسان الاعلى ، أو الاسمى ، الذى يعيش على الارض ، ولـكن أمامه سبل مفتوحة لا تنتهى الى غايات بعيدة لا تدركها الابصـــار ، ولا تصل اليها العقـــول ، ولـكنها مع ذلك تتطلب سعى الانسان وتستحثه على أن يدب عليها بقدمه قوى العزم ، ثابت الارادة ، فهو واصل الى ما لايخطر له على بال ، والى ما لايساوره حتى فى الاحلام وهو ما ترى كل يوم تحقيقا له ، فنحن اليوم خطونا على أرض القمر، وغدا علىأبواب الزهرة ، وهكذا دواليك .

ورحلة الاسراء عند الأســـتاذ محمد حسين هيكل (١)

---

(١) ص ١٨٦ من حياة محمد ـ الطبعة الاولى ..

هى ابراز لوحدة الوجود ، فقد تهاوت أمام محمد فى لحظـــة الاسراء كل حجب الزمان والمكان ، ولم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب .. تداعت فى هـذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه .

ولكن في رحلة الاسراء جانبين : أولهمـــا ، هـذا الاجتماع بين الانبياء والهداة من آدم الى محمد ، فليس أجمل ولا أروع من هذا التآخى بين هذه القافلة الهادية التى ان اجتمع أتباعها ، كما اجتمع قادتها ، تحققت وحدة البشر على أجمـــل ما تتوق اليه روح الاديان الخالصة ، وروح الاخاء الانسانى والوحدة الانسانية »

على ان أكبر المعانى فى هذه الرحلة هو ما أكد بشرية محمد رسول الله ، فلقد صـعد الى السـماء والتقى بموسى وعيسى وداود وسليمان ونوح ولوط ، ووصـــل الى سدرة المنتهى ، ثم ماذا ... ثم عاد الى الارض .

عاد الى الارض هذا أولا ، وعاد الى الارض كما كان بشرا ، هذا ثانيا ، ومحمد الذى سرى بالليل من الكعبة الى المقدس فى أبهى رحلات الروح الانسانية لا ليخرج عن بشريته ، ولا ليدعى صفة أخرى سواها ، ولا ليتغير أسلوبه فى مخاطبة الناس ، أو منهجه فى الحياة ، فبقى يقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، بل ان ابنة عمه أم هانىء وجدته حيث نام بعد صلاة العشاء ، لم يغير موضعه فى الفراش ، فهو بين البشر فى بيوت ذوى قرباه الفقراء ، فرحلة السماء زادته قربا من الناس واتصالا بهم . فالامر كما ترى ، ليس سوى قصيدة محكمة الاطراف ، أولها يرد الى آخرها ،

وآخرها يرد الى أولها ، الأبيات فيها تتدفق متصلة ، لايشوبها انفصال ويزيد بعضها بعضا وضوحا وبهاء .

صدق الله العظيم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى ، انما الهكم اله واحد » .

١٠ الدنيا والآخرة

قال الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » فالدنيا والآخرة ، يتكاملان فى التشريع الأسلامى الذى هو عقيدة وشريعة . وهذا التكامل من مميزات هذا التشريع التى انفرد بها أو كاد

فالدنيا والدار الآخرة ليسا ضدين ، ولكنهما ليسا ندين ، فليست الدنيا ملعونة ، وانما هى سبيل الى الآخرة ، أى طريق يؤدى اليها ويتصل بها اتصالا وثيقا . ولأن الدار الآخرة هى غاية ، فان السبيل اليها يكتسب من اتصاله بها ومن افضائه اليها ، الخطر والمكانة ، لذلك لابد ان تكون هذه السبيل ، أو الطريق نظيفة انيقة مستقيمة ، وليس ما يمنع أن تكون محفوفة بالازهار والرياحين .

فى الاسلام ترتفع الاعمال الدنيوية الى مستوى العبادات ، فلا يعمل الانسان عملا صالحا الا ويثاب عليه ، كما يثاب على الصلاة والصوم ، وحج البيت ، بل أن فى السنة ، من الاحاديث ما يعلى قدر العمل الصالح على العبادة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » « لمداد تريقه اقلام العلماء خير من دماء الشهداء » ، «وان المرء ليثاب على اللقمة حتى يرفعها الى فم امرأته»

وفى القرآن الكريم : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس»

وتحدث الناس الى الرسول عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ، فسأل : من يقوم عليه ؟.. فقالوا : اخوه . قال : « أخوه أعبد منه » .

وخرج الرسول الى غزوة ، فأفطر بعض من كانوا معه ، ليقوموا بما يلزم من عمل ، فعملوا طوال يومهم . فلما جاء موعد الافطار ، قال الرسول : « لقد ذهب المفطرون بثواب اليوم كله » .

فالسعى فى الحياة الدنيا هو السبيل الى الوصول الى حياة طيبة فى الآخرة ، فلا يمكن القفز الى هذا النعيم من فوق الحياة فى هذه الدنيا واهمالها أو تحقيرها أو الكف عن العمل .

ورأى الرسول يوما يدا ورمت من كثرة العمل ، فأهوى عليها يقبلها ، وهو يقول : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ويقول فى نفس المعنى : « من أمسى كالا من عمل يده ، أمسى مغفورا له » وقال : « ان الله يحب العبد المحترف » وقال : « ان من الذنوب ذنوبا لايكفرها الصوم ولا الصلاة » . قيل : « فما يكفرها يارسول الله ؟» قال : « الهموم فى طلب العيش » .

ومر على النبى رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ماجعلهم يتحدثون فيه ، قالوا : « يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله»

قال : « ان كان خرج ليسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يسعفها فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان » .

ثم ينتقل الرسول الى الدفاع عن النفس والعرض ، فيراه جهادا فى سبيل الله ، يثاب الانسان عليه ثواب من قتل وهو يدافع عن العقيدة والدين ، فقال : « من قتل دون مظلمته فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » ويصل الاسلام الى أقصى الغاية فى هـذا الصدد حينما يقول الرسول : « في وضع أحدكم صدقة » أى فى ماء الرجل . فقال صحابة الرسول : « يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيهما أجر ؟ » فقال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا : « نعم » قال : « كذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر » . فكل جهد وعمل وسعى وحركة ومتعة ولذة ، مما يثاب عليه الانسان ، ما دام قد خلا من مضرة الناس ، وأدى الى اسعاد القائم بها ، وجعل الحياة لطيفة ومقبولة ونظيفة .

من كل هذه الاحاديث والآيات ، تتضح الصلة بين الدنيا والآخرة فالناس لا يستطيعون أن يقفزوا الى الآخرة من فوق الدنيا ، اذ لابد لهم أن يسلكوا الى الآخرة ، طريق الدنيا ، وان يسيروا فيه الى آخره ، ولهذا فلا يحل لهم ان يتركوا فى هذا الطريق أوحالهم وأقذارهم ، فانهم لا يسيرون فيه وحدهم ، انما يسيرون فيه مع غيرهم . ومن ثم وجبت عليهم رعايته ، فكلما وسعوا فيه وجملوا ، جملوا آخرتهم واسعة وجميلة .

صحيح ان الدنيا ، دار سفر ، ولكن ليس ما يمنع أن تكون مع ذلك دارا مريحة . فالانسان لا يعرف كم يطول بقاؤه فيها . « اعمل لاخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا »

ولقد افاد المسلمون من اتصال دنياهم بآخرتهم اكبر النفع ، ذلك لأن الواحد منهم كان لا يعمل العمل الا ويفكر في جوانبه المعنوية وآثاره الروحية وفي نتائجه الخلقية . فلم تتجرد الأعمال عن نتائجها ودوافعها عند المسلم قط : « انما الأعمال بالنيات » فارتفعت دنيا المسلمين عن هـذا الصراع المادى البحت الذى يود الواحد فيه أن يصل الى غايته ولو على جسد أو عرض أو مال أو سمعة الآخرين ..

ففي دنيا غير المسلمين النجاح هو الغاية المقصودة ، بأي سلاح ، ومهما كان الثمن الذى يدفعه الآخرون ، والألم الذى يتحملونه .

فالقواعد والأسس المقررة في الدار الأولى ، تجعلها أقرب ما تكون من الدار الآخرة ، ففي الدار الآخرة ، يجلس المؤمنون « على سرر متقابلين » نزع من قلوبهم الغل والحسد والضغينة ، فأصبحوا اخوانا متحابين لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما .

فالدار الآخرة هي المثل الاعلى . فالعمل الفردى الذى يقوم به الانسان لا ينظر اليه مجزءا ، بل ينظر اليه على انه حلقة من سلسلة ، غايتها الوصول الى المثل الاعلى . فسعيه من اجل الرزق ، وسعيه من اجل العلم ، وزواجه وطلاقه ، وحربه وسلامه ، وبيعه وتجارته ، وشراؤه ، وايجارته ، وانابته ، ووكالته ، وما يجمع من مال ، وما ينفقه منه . كل ذلك يقاس

بمقياس الآخرة ، ومع انه يجرى فى الدنيا ، فاذا هو قد اكتسب قيمة لم تكن له ، وارتقى درجـــات عن طبيعته المادية المجردة .

فالمسلمون الذين لا يرفعون أعينهم عن الدار الاخرى كانوا لا يدخرون وسعا فى أن يصلوا بأعمالهم فى الدنيا الى اقصى الغاية من التجويد ، مدفوعين فى ذلك بقول الرسول : « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه».

فالمسلمون ازدادوا حبا لدنياهم ، وادراكا لواجبهم فيها ، وحرصا على أن يسودها جمال ، ويسود علاقاتهم حب ومودة ، ونظام واتساق ، لاتصال هــذه الدنيا بالآخرة ، فقد اصبحت لها معنى أكبر من معناها اذا كانت هى غاية فى ذاتها ، ولم تكن وسيلة لشىء أكبر منها واعظم واخلد .

ومن اتصال الدنيــا بالآخرة يؤمن المسلمون بعقائد فهموها على احســـن وجوهها ، فعلمتهم المخاطرة ، وغرست فيهم حب المعرفة ، وزينت لهم النظـــر فى انفسهم ، وفى الآفاق وفى الــكون « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم » (١) .

تعلم المسلمون من كون دنياهم طريقا الى آخرتهم ، عقيدة التوكل ، فقد جاء فى القرآن الكريم : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ، « وانى توكلت على الله ربى وربكم » ، « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال الرسول : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تروح خماصا وتعود بطانا » (٢)

---

(١) فصلت : ٥٣ ..

(٢) اورد هذه الايات والاحاديث الشيخ عبد العزيز جاويش فى « الاسلام دين الفطرة والحرية » ص ٨٠ .. وعلق عليها ..

وقد سبق ان قلنا ان معنى هذه الآيات والأحاديث هو ما قررته الآية الكريمة : « قل يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ومعناها ان المؤمن لا يفسح مكانا للخوف والاجفال ، والتردد عن السعي والحركة والمثابرة ، والاجتهاد ، والانتقال من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد ، ومن مواجهة الظالم ، ومن الدعوة الى الخير ، ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن ما يصيب الانسان ، أمر تقرره قوانين الكون المستقرة الثابتة .

ولعل اكبر ما يخافه الناس هو الموت .. وقد قال الله تعالى : « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (١) . « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل » .

وقال تعالى : « قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » (٢) . « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذى كتب عليهم القتل (٣) الى مضاجعهم » ، « لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى ، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت » .

فالدين اذن يدعو الى التوكل ، ويدعوا الى شيء أوضح منه ، وهو انه لا مبرر للخوف من الموت ، أخطر المخاطر ، واكره ما يكرهه الانسان ، اذ لا سبيل الى الفرار منه . واذا نزع دين من قلب انسان الخوف من الموت ، فقد ملأه بشجاعة لا حد لها ، ودفعه الى حياة ملأتها المجازفة من أجل أسمى الغايات وأعلاها ولهذا قد حق أن يوصف المسلمون المؤمنون بما وصفهم به

---

(١) النساء : ٧٨ (٢) الجمعة : ٨ (٣) آل عمران : ١٥٤

القرآن بأنهم : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

فاذا كانت عقيدة التوكل التى كانت احدى قواعد البناء الأخلاقى والروحى فى الاسلام ، قد مسخت ، فادت الى عكس ما قصد بها ، فليس ذلك عيب العقيدة وانما هو عيب الذين يتلقونها الآن بقلوب مريضة ونفوس ضعيفة ، لا تستجيب للعلاج ، ولا ينفع فيها الدواء ، لأن ما اجتمع فى أبدانها من الأمراض والعلل والجراثيم اقوى من ان يقضى عليه الدواء وحده ، اذ لا بد الى جانب الدواء ، تجديد الهواء ، ومضاعفة الغذاء ، وتغيير المكان ، وعزل المريض عن الذين يخالطونه ، لكيلا يلحوا عليه بترديد الاوهام التى تجعله أضعف ايمانا بالطبيب وبالدواء .

وجملة القول ان اتصال حياة المسلمين بآخرتهم رفع من شأن حياتهم ، واسبغ عليها من السمو والرفعة والنظافة والأناقة ، والنظام والاتساق ، ما تسبغه المثل العليا على المتمسكين بها ، والعاملين لها . ونفى عنهم العاهات النفسية ، والآفات الخلقية ، وأعفاهم من الدنايا والمهاترات التى يتردى فيها أبناء المجتمع الذى لا يعرف الا الاغراض الفردية ، والدوافع الشخصية ، والتكالب على المال ، والتنافس الحاد العنيف من أجل السلطة والجاه .

اصبحت حياتهم جميلة يؤنسها أمل ، ويضيئها مثل ويتوجها هدف ، لذلك استطاع المسلمون أن يكونوا علماء يكشفون حقائق الكون ، يؤلفون ويترجمون ، يعطون ويأخذون ، ويجمعون بين ما يأخذونه ، وبين ما يوفقون اليه ، فيخرجون حضارة عربية ، طابعها

انسانى ، وجوهرها عال .

ثم يزودون بالشجاعة فلا يكفون عن مواجهة المخاطر، يخوضون مجاهل البحار والبقـاع ويخضمون أمواج المحيطات لسفنهم وأساطيلهم ، ويحسون ان هذا العالم قد سخر لهم حقا ، وانهم مدعوون دوما الى الاتصال به والنظر فيـه ، فأجابوا الدعوة ، وغدوا للأمم قادة وروادا ، وما زال مثلهم يوحى الى النفوس بالايمان والسعى الجميل من أجل أعلى المثل وأبعد الغايات .

قال العلامة درابر (١) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل باول عهدهم باحتـلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية . أى بعد موت محمد بست سنوات ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الـكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح » .

الى أن قال : « ولما ولى الخلافة ابو جعفر المنصور فى سنة ٧٥٣ الى سنة ٧٧٥ ميلادية نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلهـا عاصـمة فخمة ، ثم بدأ فى نشر العلوم الفلـكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة . ولما تولى حفيده هارون الرشيد سنة ٧٨٦ ميـلادية اقتفى أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر باضافة مدرسة الى كل مسجد فى جميع أرجاء ملـكه ، ولـكن عصر العلم الزاهر فى القارة الاسيوية لم يشرق الا فى خلافة المـأمون الذى تولى الخلافة سـنة ٨١٣ حتى سنة ٨٣٢ ميلادية ، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع اليهـا كتبا لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

هـذا هو الذى قاد العـرب الى أن يكونوا أول

(١) الاسلام دين الهداية والاصلاح ـ طبعة دار الهلال ـ ص ١٧٢

الواضعين لعلم الكيمياء والمستكشفين لعدة أجهزة للتقطير والتصعيد والاسالة « اسالة الجوامد » والتعبئة .. الخ ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات « آلات القياس لابعاد الكواكب » وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للأجسام والازياج الفلكية ، وجداول تعرف بها حركات الكواكب مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضا الذى حقق لهم القدرة الباهرة فى الهندسة ، وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى أدى لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الارقام الهندسية .. هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب ارسطو الاستدلالى على مقالات افلاطون الاستنتاجية .

ولقد دابوا على جمع الكتب بصفة منتظمة وتكوين المكتبات التى تكلمت عنها ، الى ان قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الاندلس على ستمائة الف مجلد وكانت قائمة اسمائها وحدها واقعة فى اربعة واربعين مجلداً ، وغير هذا ، فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة»

ثم قال : « أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة اساتذة الجامعة ان يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم ، وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه . ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم ، كالتاريخ والشريعة ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وتراجم الخيول ، والابل .. كل هذه المؤلفات كانت تنشر بلا رقابة أو حجر » .

مستقبل التشريع الإسلامي

منذ اليوم الاول ، والرسول بين ظهرانى المسلمين فى المدينة وباب الاجتهاد فى الاسلام مفتوح ، والدليل على ذلك حديث الرسول مع معاذ بن جبل حينما ولاه قضاء اليمن ، فقد سأله : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال معاذ : « أقضى بكتاب الله ، فان لم أجد فبسنة رسول الله ، فان لم أجد أجتهد رأيى » . وقد فرح الرسول بهذه الاجابة اذ وفق أصحاب رسول الله الى مايرضى الله ورسوله . فالشريعة الاسلامية وهى فى مطالعها تؤمن بالرأى ، وترحب به ، وهو الاجتهاد ، والاجتهاد حتى فى تعريف علماء الأصول به ، هو بذل الجهد للوصول الى الحكم الشرعى العملى من دليله التفصيلى او هو بذل الجهد للوصول الى الحكم فى واقعة لا نص فيها بالتفكير واستخدام الوسائل التى هدى الشرع اليها للاستنباط بها فيما لا نص فيها (١) .

وقد اجتهد الرسول ، واجتهد الصحابة ، وقد عرفنا أن الرسول أمر بعدم اقامة الحدود فى السفر ، أى فى فترة الحرب مع أعداء الاسلام ، ورأينا كيف أن عمر اجتهد ، فعطل حد السرقة فى واقعة غلمان عبد

---

(١) مصادر التشريع الاسلامى فيما لانص فيه ــ ص ٧ ــ عبد الوهاب خلاف ..

الرحمن بن حاطب ، كما أوقف حد السرقة فى عام المجاعة ، وأوقف حكم المؤلفة قلوبهم القاضي باعطائهم نصيبا فى الصدقات ، وهو النصيب الذى كان يعطيهم اياه الرسول ، ثم اعطاهم اياه أبو بكر ، ثم منع زواج المسلمين من الكتابيات مسيحيات ويهوديات مع جوازه شرعا ، وقد سعر الخلفاء والصحابة وتابعوهم ، وقد رفض الرسول أن يسعر أثمان الحاجيات .

ثم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى أبى موسى الاشعرى : « اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عندك » وهو عماد القائلين بقياس الاحوال التى لم يرد فيها نص فى الكتاب والسنة ، على الاحوال التى ورد فيها النص ، عند تشابه العلة في كليهما .

وعرفنا كيف عمل الصحابة والتابعون وتابعو التابعين على مواجهة الاحوال والامور التى لا تتناهى بالنصوص التى تتناهى ، بعد أن زودت هذه النصوص بما منحها الحيوية ، فاتسعت ، ومرنت ، واعطت من الاحكام ما كانت تعجز عن اعطائه ، لو أنها بقيت جامدة لم يذهب عنها جمودها الاجماع والقياس ، ومصادر الشرع الاخرى كالاستحسان والمصالح المرسلة .. الخ

ثم أصاب المسلمين ما أصابهم ، فذهب سلطانهم ، وجمد علماؤهم ، وانقطعت صلتهم بأجدادهم فأصبحوا اذا قراوا القرآن لم يفهموه ، وان فسروه ملأوا تفاسيرهم بالخرافات ، والخزعبلات ، والاكاذيب ، حتى أضحكوا عليهم الكبار والصغار ، ولم ينصرف عنهم الناس فى بلاد الاسلام وحدها وضعف شأن الاسلام فى نظر الاجانب .

ثم أصبح معروفا ، متداولا ان باب الاجتهاد قفل ،

وراح الناس يتساءلون : من الذى أغلقه ؟.. ولماذا أغلق وهل من سبيل الى فتحه من جديد ؟ ..

والواقع انه لم يغلق ، ولكن المسلمين أنفسهم ضعفوا ، فطالت مهانتهم ، وانقطعت وسائلهم عن الحياة ، وقنعوا بدور التابع والمقلد ، على الرغم من كثرة ما دعاهم القرآن الى التفكير والنظر فى شئون الكون ، وفى أنفسهم ، وعلى الرغم من كثرة ما ندد بالذين يقلدون ويعتزون بما لديهم ، مهما عرض عليهم خير منه ، ومهما بلى فى أيديهم ورث وتعفن .

فالذى اذال على المسلمين وأضعفهم ، وملأ قلوبهم بالخوف من الدنيا ، وحبب اليهم ايثار العافية ، واتقاء الابتكار ، والمجازفة ، وأحال عندهم التوكل على الله ، والايمان بأنه لن ينفعهم الفرار ولا الخوف الى تواكل زرى ، هو الذى أغلق باب الاجتهاد ، لان الاجتهاد كما يدل عليه اسمه ، يحتاج الى ارادة تريده ، والى عقل يتأمل ويفكر ، والى نفس تحس وتقبل على ما يعرض عليها ، اقبال الفاحص والمدقق ، ولا شىء من هذا عند أمم ضربت عليها الذلة ، وركبها أعداؤها ، فكبلوا أول ما كبلوا عقلها ، ثم شلوا ارادتها ، ثم عقدوا قلبها ، فأصبح أبناؤها كالخشب المسندة (١) .

---

(١) قال الشيخ عبد الوهاب خلاف – فى بيان أسباب جمود الشرع الاسلامى – فى كتاب مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه – انه ينظم التشريع الاسلامى باختيار جماعة من المشرعين يكونون مصدر التشريع ولا باختيار مجموعة من احكام الاجتهاد، تكون قانون المسلمين وبهذا الاهمال جمد التشريع الاسلامى ووقف عن مماشاة الزمن ومن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجرا ان علماء المسلمين رسموا الاجماع بصورة لاسبيل الى ان تتحقق فى الوجود ، وسموه بانه اتفاق جميع المجتهدين فى الامة الاسلامية ، بعد عهد الرسول على حكم شرعى وقرروا أن الاجماع لا يتحقق الا اذا عرف الجميع –

استمروا على هذا المنوال حتى بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين حركات التحرر، فبدأ الحكم الاجنبى يثقل على المسلمين ، وأخذوا يعالجون هذا العدو ليتخلصوا منه . فلما عادت اليهم الرغبة فى القتال ، أخذت دماؤهم تتحرك فى عروقهم بعد ركود ، فاشتد نبض قلوبهم ، فاذا عيونهم ترى أبعد مما كانت ترى ، وآذانهم تسمع أدق مما كانت تسمع ، وتغير طعم الحياة فى أفواههم ، فحلى ما كان مرا ، وقبح ما كان حسنا ، وفى هذه المرحلة ، ألح عليهم الشوق الى ما خلفه لهم الآباء ، فعادوا يقرأون بعض هذه الذخائر التى طمرها التراب وأكل أكثرها دود الاهمال والنسيان ، فأدركوا أن تحت الارض التى يمشون عليها ثروات ، لو أخرجوها ، لاستبدلوا بالمزع التى يلبسونها ، ثيابا أنيقة ، ولتحولت الاعواد الخشبية التى يحملونها الى سيوف تقطع ، ورماح تخز وتخيف .

ولذلك فقد علا تساؤلهم : من الذى أغلق باب

= المجتهدين من المسلمين فى العالم الاسلامى واحصوا؟ وابدى كل واحد منهم رأيه بصراحة فى الواقعة المعروضة وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم ان كل واحد منهم اصر على رايه الى ان تم ابداء كل احد رايه وكانهم ارادوا اجماعا عالميا ، فطمياق الحكم الذى ينعقد لا ما أراده الرسول حين قال لعلى أجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولاتقضوا فيه برأى واحد ، فهو انما اراد ان يكون الرأى للجماعة لا للفرد . ثم قال : فالاجماع الذى رسموا صورته اجماع فرض وهو غير الاجماع الذى انعقد فى عهد الصحابة ، ولذا قال فريق من العلماء انه غير ممكن انعقاده وما انعقد فعلا حتى بالغ بعضهم وقال أنه غير ممكن عقلا اى لا يتصور فى العقل صورة وجوده ، ولعل هذه الصورة غير الحقيقية هى التى رآها من توهم جمود مصادر التشريع ؟ وما يراه الاستاذ عبد الوهاب خلاف سببا لجمود التشريع الاسلامى ، نراه نتيجة للحالة التى وصل اليها المسلمون سياسيا اولا ثم اجتماعيا

الاجتهاد ؟ .. ولماذا أغلق ؟.. وكيف يفتح ؟ ..

واستطيع أن أقول ان هذا الباب الذى كان مسدودا قد أصبح مواربا ، ولأنه باب ثقيل ضخم ، ولأن مزاليجه علاها الصدأ ، فأصبحت ادارته وتحريكه عبئا أى عبء فان فتحه سيستنفد وقتا ، وسيستهلك جهدا ، ولكنه سيفتح .

وعندما يفتح ، ستعود الحياة الى الشرع الاسلامى ، فيتحرك بعد جمود ، وسيكسب فى كل خطوة يخطوها ، عزما على البر ، وثباتا على الطريق ، وايمانا بالحركة والحياة .

ولعل أى مكابر ، مهما اشتدت مكابرته لا يمكنه أن ينكر أن ما كتب عن الشريعة الاسلامية ، وفقهائها ، ومجدديها ، وأصولها ، وأبوابها المختلفة من معاملات ، وجنايات ، وعن تاريخ صاحب الشريعة وتاريخ أصحابه ، وتابعيهم ، قد فاق فى الخمسين سنة الاخيرة كل ما كتب فى الخمسة قرون السابقة على زماننا وأيامنا .

لقد عاد الناس الى معينهم القديم . صحيح انهم عادوا على استحياء ، ولكنهم سيألفون ماءه وسيعرفون الطريق اليه ، ويردون اليه وسيصدرون عنه ، وسيمهدون فى الذهاب والاياب طرقا تسلكها أقدام غيرهم وغيرهم ..

وستكون نهضتهم الحقيقية عندما يطيلون النظر فيما كتبه أجدادهم ، وتطول قاماتهم ، وتتسع صدورهم ، وتشتد سواعدهم ، حينما ينهلون من هذا النبع القديم بالقدر الذى تكمل به الصحة وتعود معه العافية ، ويزول المرض . فما صلح حال أمة ، ولا قامت فيها

نهضة ، ولا اصبحت مشرق نور ، أو مصدر حضارة ، الا عندما تعود الى ماضيها ، وتأخذ منه ، وتنفض عنه الغبار ، وتوائم بينه وبين الحاضر. لا تأخذه على علاته ، فالله وحده هو الذى يبعث الموتى ، وهو وحده الذى يحيى العظام وهى رميم . صحيح ان علمنا القديم ، وعلمنا الأقدم ، ليسا عظاما ، ولاشيئا شبيها بالعظام ، ولـكنه على أية حال ليس بعلم اليوم وان كان هو أساس علم اليوم فهو نقطة الابتداء التى لا سبيل الى تجاهلها بحال .

وفى كلمة ان مستقبل الشريعة الاسلامية ، هو مستقبل المسلمين . فان حلت عقدة الكفاح عند المسلمين ، وعاودهم اصرارهم على التحرر والتقدم والبناء ، زادت الشريعة الاسلامية وضوحا، وزاد دورها فى حركة البعث بروزا ، ولما كانت الحياة الانسانية نسيجا مركبا تصبح الاسباب فيه نتائج ، والنتائج أسبابا ، فان الشريعة الاسلامية ، بقدر ما ستكسب من حركة التحرير والمقاومة ، ستعطى هذه الحركة زادا ووقودا .

ولن تستطيع الشريعة الاسلامية أن تحتل مكانها وحدها اللائق بها ، فى حياة المسلمين ، بكل ماتحتويه من كتب تفسير وكتب فقه ، وموسوعات كبيرة فى الأصول ، وفى غيره ، الا اذا سبق الاحتفال بالشريعة ، ومهد لها الاحتفال بالتراث الاسلامى والعربى كله ، من أدب وشعر ، وتاريخ ، وعلوم ، وفلسفة . فهؤلاء جميعا اخوات فى عائلة واحدة ، يمشين معا ، ويتقدمن معا ، ويتأخرن معا .

وعندما تصفو حركتنا من الشوائب التى تشوبها وهى شوائب تخلفت من فترات الانحلال ، وفترات

التهيؤ للمقاومة التى تنازعت نفوسنا خلالهـــا ، دوافع القوة وعوامل الضعف ، فان الاقبال على هذا التراث وادراك قيمته ، ستصل الى الغاية .

واذا كان لى أن أقترح شيئًا فى هذا الصدد ، فهو الاسراع بتقديم التراث الى شبابنا فى المدارس مشروحا ومعلقا عليه ، وملحقا بالفهارس ، وبالمقدمات التى تقدم صاحب المؤلف ، وتاريخه ، وقصة عصره وتحلله .

وبتقرير ما وضعه علمـــاؤنا المعـــاصرون فى أبواب الشريعة الاسلامية المختلفة على طلبة كليات الحقوق ، بوصف تلك المؤلفات ، مادة أساسية ، واشهد أن بعض هذه الكتب فى التشريع الجنائى وفى العلاقات الدولية ، وفى المعاملات ، حقق أكثر مما كنا نرجـــوه من هؤلاء العلماء فى خدمة الشريعة وتقريبها لأولادنا ، وتيسيرها عليهم .

ان هذا العبء ، عبء تنقيح أمهات الـكتب الاسلامية والعربية والموسوعات الكبرى التى تركها الآباء والأجداد فى كل فرع من فروع المعرفة الانســـانية بما فى ذلك الرياضة ، والفلك ، والطب ، والطبيعة ، والكيمياء ، والجغرافيا ، وتحقيقها ، وتبويبها ، ودراســـتها ، والمقارنة بين نسخها المختلفة فى أمكنتها المتعددة ، هو العمل الذى يجب أن يبذل له أســاتذة كليات الازهر أعظم الجهد وأكبره ، ولا زلت أرى ان طلبة المعاهـد الازهرية الثانوية ، يجب أن ينقسموا الى طلبة علوم وطلبة آداب لـكى يســتطيعوا ان يحيطوا بكتب العلم والادب التى يحتويها التراث الاسلامى ، ليقدموها لنا وللعالم فى صورة ما يقدمه المستشرقون لنا اليوم من هذا التراث ، هؤلاء المستشرقون الذين كبر دينهم فى

أعناقنا لطول ما أهملنـا ثرواتنا ، وتخلفنـا عن أداء الواجب .

على ان الذى أستطيع ان اقطع به ، دون مبالغة فى التفـاؤل ، ان الشريعة الاسلامية ، ستستعيد كل ما فقدته ، وانها ستكون اساسا من أسس حياتنا الفكرية ومن بناء مجتمعنا الجديد ، اذا كتب لنا أن نستأنف حياتنا ، كأمة تخلق المدنيات والثقافات ، وتنبى عليها الحضارات .

واحسب اننا فاعلون ، وفى القريب ، أقرب ما تظنون

... والحياة

جريمتان

جريمتان تقع كل منهما فى شهر ابريل ، وتقع كل منهما على افريقى ، وتقع كل منهما بسبب واحد . فكانهما جريمة واحدة والمجنى عليه فيهما واحد . ومع ذلك فانه يفصل بين موقع الجريمتين آلاف الاميال ، كما يفصل بين موعد ارتكابهما آلاف الايام ، فقد وقعت اولاهما فى السابع عشر من ابريل سنة ١٩٥٧ فى مقديشيو عاصمة الصومال بأفريقيا وارتكبت الثانية سنة ١٩٦٨ فى مدينة ممفيس فى ولاية تنسى بأمريكا ، وقد ذهب ضحية الاولى السفير المصرى محمد كمال الدين صلاح ، وذهب ضحية الثانية الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج قتلتهما يد واحدة بسلاح واحد وان كان كمال قد طعن فى ظهره من الخلف بخنجر وكان اغتيال كنج ببندقية حديثة مزودة بمنظار مقرب . ولكن القاتل فى الحالتين كان الاستعمار الذى يكره الافريقيين والآسيويين ، وكل الشعوب التى فرض عليها الفقر والجهل والتخلف ان تحطم سلاسلها ، وأن تعوض على نفسها ، ما فات من أيام وسنين .

ذهب الدبلوماسى المصرى محمد كمال الدين صلاح الى مقديشيو عاصمة الصومال ليمثل مصر فى المجلس الاستشارى التابع للأمم المتحدة فقد فرض ميثاق

المنظمة العالميــة على الدول التى تدير مستعمرات أو أقاليم غير متمتعة بالحكم الذاتى ، وصاية ، لـكيلا تضع الدول الاجنبية الحاكمة عقبات فى طريق تقدم واستقلال الشعوب المحكومة ، ولـكيلا تعاملها معــاملة غير لائقة بالجنس البشرى وكرامته .

خاض كمال معارك مع الاستعمار طويلة ومريرة ، ولم يكن خصومه هم الادارة الايطالية وحدها فقــد انضم اليها البريطانيون ، وكانوا يطمعون فى أن يضــموا الى الـكومنولث البريطانى دولة ذات موقع فريد تطل على المحيط الهندى وتحرس مدخل البحرالاحمر الجنوبى ، وكان الامريكيون يطمعون فى أن يبسطوا نفوذهم هناك ، لما فاحت رائحة البترول فى منطقة تفصــــل الصومال عن الحبشــة . اجتمع الغرب كله على كمال ، ولـكنه لم يحفل بهذا التحالف غير المقــدس ، وراح يحارب بثبات وهدوء ، أعداء استقلال الأمم وتقدمها. وثار يوما ثورة هائلة لأنه لاحظ ان ادارة البريد الايطالية خصصت نافذة لتوزيع بريد الاوربيين ، وخصصت نافذة أخرى فى مكان حقير لتوزيع بريد الافريقيين ، فاعتذرت الادارة ووحدت النافذة . لاحظ ان الاستعمار يروج لفـكرة نشوء دولة اتحادية فى الصــــومال أى دولة مكونة من ولايات ، فسافر آلاف الاميال ليخطب فى زعماء القبائل وفى الشعب محذرا من الانسياق مع هذه الفكرة التى كان يراد منها تفتيت وحدة الصومال ، فقبرت الفكرة فحاول الاســـتعمار أن يغرى الصوماليين بأن يخلقوا لانفسهم من لهجاتهم المحلية غير المكتوبة ، لغة يكتبونها بالحروف اللاتينية ليصرفوهم عن اللغة العربيــة التى يحسن معظم الشعب التكلم بها ، فحارب كمال هــذا

الاتجاه المدمر ونجح فى ان ينص فى دستور الصومال على ان اللغة العربية هى اللغة الرسمية للصومال ، ثم استقدم من مصر علماء الازهر والمدرسين ، وخبراء الزراعة والاقتصاد ، وانشأ المراكز الثقافية فانتشر نور العلم والوطنية معا ، فكان على الاستعمار أن يتخلص من كمال فحرض شابا ملتاثا على اغتياله ونفذت الجريمة فازداد الصوماليون ايمانا بما دعا اليه وعمل له كمال الدين صلاح ، واصبح عند الصوماليين واحدا منهم وزعيم حريتهم وبطلا من أبطال وحدتهم .

حدث ذلك كله قبل أن تخوض معركة افريقيا أولى مواقعها ، فكانت معركة مقديشيو فاتحة هذه المعركة النبيلة العظيمة التى توالى بفضلها استقلال الشعوب الافريقية الواحد بعد الآخر وكان لابد لهذا التحرر من صدى عند الزنوج فى امريكا فقد قال مارتن لوثر كنج ان دول افريقيا تتقدم بسرعة جبارة نحو استقلالها . أما نحن فنتقدم بسرعة السلحفاة . وقال : « ان حركة التحرير الافريقية ايقظتنا من سباتنا وفتحت أعيننا على الآفاق العظيمة التى يمكن أن يرتقى اليها الاسود » .

جريمتان فى الظاهر ولكنهما جريمة واحدة فى الواقع ، هى قتل كمال الدين صلاح فى الصومال ، وقتل مارتن لوثر كنج فى امريكا ، ولكنه قاتل احمق قصير النظر جاهل لانه لا يعرف أن من يعمل للحرية أو يعمل ضدها فانه يعمل لها .

نشيدنا القومى

من المشكلات التى حرت فى امرها ولم أهتد الى حلها مشكلة نشيدنا القومى لذلك آثرت ان أكل اليكم النظر فيها بعد أن أحدثكم قليلا فيما تثيره من الخواطر فى الرأس والنفس معا . لكل أمة نشـــيد يحفظه أكثر أبنائها ويتعلمه الاطفال فى رياضهم ثم لا يجتمع عدد من المواطنين فى مناسبة قومية الا وختموها بهذا النشيد ، يرتلونه فى حماسة وقوة ، فيشعرون بالوحـــدة التى تربطهم وبالاخوة العامة التى تضمهم ، فيزدادون قوة ، ويزداد معنى الوطن وضوحا فى نفوسهم ، وتزداد الروح الجماعية تأصلا وثباتا ، واتساعا وغنى .

ولقد حاول المصريون ان يكون لهم نشيـــد فتنافس شعراؤهم الـكبار والصغار فى نظم عدد من الاناشيـــد لم تكتب لها جميعا الحياة ، وان تفاوتت أعمارها فمنها ما مات قبل أن يولد ، ومنها ما كتب له أن يعيش زمنا قصيرا ، ومنها ما كان يموت ثم يبعث فتدب فى أوصاله بعض القوة ، ثم يعود الى الموت. ومن الشعراء من نظم أكثر من نشيد ، ومن الاناشيـــد ما تبنتـــه الحكومات، ومنها ماتبنته الاحزاب ، وماتبنته الاحداث، ولـكنها جميعا تساوت آخر الامر فى الحظ وتشابهت فى المصير ، وبقى المصريون بلا غطاء رأس يلبسونه ، وبلا

نشيد يرتلونه ، كما تفعل الامم والشعوب كافة .

واختفاء النشيد من حياتنا له آثار سيئة على تربيتنا القومية وعلى أذواقنا العامة ، ولـكنه الى جانب ذلك كله يسبب حرجا وضيـقا لأولادنا حينما يتجاوزون حدود الوطن ويخرجون الى غير بلادهم من البلدان ، فكثيرا ما يطلب اليهم أن ينشـدوا النشيـد القومي فيسقط فى أيديهم فيضطرون الى الاعتراف بالحقيقة المرة المخجلة حينا ، ويؤثرون الكذب حينا آخر على التسليم بأنهم بلا نشيد فيلقون اغانى الحب والهوى ، مستغلين جهل الاجانب بلغتهم وقد حدثنى كثير من الاصـدقاء انهم اضطروا فى بعض المناسبات الى ترديد اغنيـة :

« خد البزة واسكت » و « شـم الـكوكايين خلانى مسكين » فى حماسة يتفصد لها الجبين بالعرق وتنتزع التصفيق من الاجانب المخـدوعين والمغرر بهم وقـد لاحظت ونحن طلاب فى الجامعة ان اخواننا فى سوريا ولبنان والعراق اغنياء بالاناشيد وانهم لايفرغون من واحد منها الا ويبدأون فى الثانى وهى أناشيد شائعة فى أقطار العروبة الواقعة شرقى القناة ، وأكثرها حظا من الذيوع نشيد « بلاد العرب أوطانى » ولكن لم يبرز من هـذه الاناشيد واحد يسود عليها جميعا ويتفوق ، وينعقد له لواء الزعامة وهذا ما نريده ونطمع فيه .

ولست ادرى ما سر فشل اناشيدنا ؟.. اهو ضعف الروح الجماعية واستبداد الروح الفردية ، أم هو سوء تربيتنا السياسية التى لم تكن تعنى بخلق الجماعات وبتهيئة الجو للعمل المشترك والتى لم تكن تؤمن بالجهد الجماعى الذى يصدر عن التفكير الجماعى أم ان مرد ذلك هو سوء تربيتنا الفنية ، فقد كنا ولا نزال نحب

الاغنية الفردية حبا استباحت معه كل وقتنا ، فالتهمته كله تقريبا . وفى الاغنية الفردية نســتمع الى مطرب واحد يصول ويجول ، ويقطع أوصال الاغنية كما يشاء له المزاج ولا نرى جماعات تتنوع أصواتها من النساء والرجال وتتعاون فى أخراج عمل فنى واحد. ولذلك لما تاق المستمعون الى المشـاركة الفنية ، كانت هـذه المشاركة صراخا . فحفلاتنا الغنائية صراخ جميل من المطرب يقابله صراخ قبيح من المستمعين ، وهذا الصراخ الذى يصدع الرؤوس ويبدد قوى المتبرعين به ، هو النشيد الوحيد ، الذى نحسنه ، وسيبقى نشـيدنا الوحيد حتى يتم تغيير أسلوب العمل السياسى ، وحتى نتدارك تربيتنا الذوقية بما يجعل للأعمـال الفنيـة الجماعية نصيبا كبيرا الى جانب الغناء الفردى الذى يحتكر نشاطنا الفنى .

البترول وحضارة العرب

لاشك فى ان بعض الارقام يكون أفصح وأبلغ ابانة من كتاب ضخم او مقال طويل ، وان كان بعض الارقام خادعا ومضللا فقد تحسب مثلا ان دولة من خمسين مليونا أقوى دائما من دولة من خمسة ملايين فقط وليس هذا صحيحا على ما تظهره لنا حقائق التاريخ القديمة والحديثة .

ولكن من الارقام ذات الدلالة الفصيحة التى لا تكذب ما نشر أخيرا عن أرصدة البترول فى العالم مقارنة بأرصدة البترول فى الشرق العربى . تقول هذه الارقام : ان ما يستهلكه العالم يوميا من البترول هو ٣٦ مليون برميل فيكون ما يستهلكه العالم سنويا ثلاثة عشر بليون برميل ، اى ثلاثة عشر الف مليون . ولما كان الموجود الآن على وجه التحقيق من البترول فى باطن الارض اى فى الآبار التى كشف عنها فعلا ويستخرج منها البترول هو ٤١٧ بليونا من البراميل فيكون الرصيد الحالى من البترول كافيا لسد احتياجات العالم منه لمدة اثنتين وثلاثين سنة ، ولكن أهم رقم فى هذه الاحصائية هو نصيب الشرق العربى الاسلامى ـ الذى نسميه بالشرق الاوسط ـ من هذا الرصيد وهو ٢٨٤ بليونا من البراميل ، اى ٥٩ ٪ من رصيد البترول فى

العالم بأسره فى حين ان ما تملكه افريقيا من هـذا الرصيد هو ١٠ ٪ وهو نفس نصيب امريكا منه .

ولقد تعبت من كثرة ما قلت ان وجود البترول بهذه الكميات الهائلة فى بلاد العرب ، شرقى القناة وغربها ، لا يمكن ان يكون ظاهرة جغرافية بحتـة او حقيقـة اقتصادية صرفة ففي هذه المنطقة من العالم تلتقى أوربا بآسيا بافريقيا ، وفيها مفاتيح البحار التجارية الكبرى الابيض والاحمر . وقد ولد فى نفس المنطقة من قبل موسى وعيسى ومحمد ، وعلى أرضها دارت أكبر المعارك التى غيرت وجه التاريخ ، ولقد كررت هـذا الـكلام كثيرا حتى يصيبنى أحيانا بعض الخجل ، اذ اضبـط متلبسا باعادته وتكراره ، وانا لا أكرر هـذه الحقائق لمجرد ارضاء شـعورى الخاص بالزهو والفخـر لانى أنتسب الى منطقة يحبها التاريخ حبا جما ويؤثرها على غيرها ، فيجرى على أرضها وفوق ساحتها ، وعنـد شواطىء بحارها وانهارها أكبر أعماله الحضارية ، بل لانى اريد أن احرك فى نفوس أهلها شعورهم بالمسئولية وادراكهم لدورهم الحضارى ، فأنا أحزن كثيرا حينما أرى ان بعض أهل هذه المنطقة يعتبر المثل الاعلى ان تنقل الينا الدولة العصرية الحاضرة بكل عيوبها وأخطائها وبكل قصورها وعجزها الروحى ، وبكل مظالمها وموبقاتها العقلية والنفسية مع ان أهل أوربا وأمريكا لا يلقون من هذه الدولة الحديثة الا الشقاء والهموم ، ولعلهم يتمنون لو امتدت اليهم يد لتخرجهم من هذه الرمال الناعمة التى غاصت فيها اقدامهم فلم يعـد فى مقدورهم ان يخرجوا منها . والذين يستطيعون أن ينشئوا مثالا آخر للدولة وصورة جديدة للمجتمع ، شـعوب لها مثل

تجاربنا الحضارية الرفيعة ، ولها اسسنا الروحية التى آمن بها العالم ، وحرص عليها ثم دهمته حضارة البخار والكهرباء والذرة ، حضارة المدفع والصاروخ والقنبلة الهيدروجينية ، فزلزلت نفسه زلزالا فزاغت بصيرته وكفر بكل شيء وبنفسه قبل كل شيء ، ولكن أهل المشرق مطبوعون ، ككل البشر ، على حب تقليد الاقوياء فهم يحسبون انهم لو قلدوهم لاصبحوا فى مثل قوتهم والحقيقة ان هؤلاء الذين نحسبهم أقوياء ليسوا بالقوة وبالقدر الذي نتصوره .

الحقيقة ايضا اننا نستطيع أن نخدمهم ونخدم انفسنا لو تعلمنا علمهم ولم نرفع اعيننا فى الوقت نفسه عما يحتويه تراثنا الروحى والفكرى من ذخائر .

فوجود البترول لدينا ليس مجرد وجود وقود فقد كانت قطرة البترول فى الحرب العالمية الاولى ، توصف بانها كقطرة الدم ، والآن يمكن أن يوصف البترول فى كلمة واحدة هى الحضارة . فالبترول هو الحرب والسلم ، لانه الصناعة والزراعة ، والتجارة والطباعة ، والصحافة والسياحة ، والغذاء والكساء ، ويزداد اعتماد الناس عليه يوما بعد يوم فقد كان استهلاك العالم اليومى من البترول منذ عشر سنوات ١٧ مليونا من البراميل فأصبح استهلاكه اليوم ٣٦ مليونا ، ونحن ننتج فى الشرق العربى من هذه الملايين نحو عشرة ملايين برميل فى حين تنتج الولايات المتحدة أقل من تسعة ملايين . فالمنطقة التى منحت العالم أكبر الضياء روحيا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة تعود فتمنحه الضياء ماديا . فهل ندرك ما فى هذا من ايحاء وهل نستعد له ونتهيأ للقيام بتبعاته ؟ ..

بطلان مجهولان

لا اذكر اثنين من ابطالنا الذين غمطنا حقهما وجحدنا فضلهما ، ونسينا ما طوقا به عنق الوطن من أياد ، حتى أشعر بالم مضن .

اول البطلين الاميرالاي أى العميد محمد عبيد بطل الثورة العرابية ، وثانيهما هو عبد الرحمن فهمى بطل ثورة سنة ١٩١٩ .

كان محمد عبيد بطل أولى واقعات ثورة سنة ١٨٨٢ ولو لم يقم بهذا الدور مستهدفا الخطر شجاعا حازما حاسما ، لتغير وجه التاريخ .

ولعلنا نذكر ان زعماء الثورة الثلاثة : عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، قدموا عريضة الى وكيل وزارة الحربية طلبوا فيها عزل وزير الحربية حينذاك عثمان رفقى الذى كان شركسيا أخذ على عاتقه محاربة المصريين فى الجيش والحيلولة دون ترقيتهم الى الرتب العليا ، ليبقى الجيش المصرى حكرا للأتراك والشراكسة وغيرهم ، فلما عرض وكيل الحربية ـ حينذاك ـ العريضة على رئيس الوزارة رياض باشا ، أبدى رغبته فى أن يرى الزعماء العسكريين الثلاثة ، ثم انعقد مجلس النظار (الوزراء) برئاسة الخديو توفيق ، وانتهى الرأى بناء على اقتراح عثمان رفقى وزير الحربية ، الى وجوب

اعتقال عرابي وزميليه ومحاكمتهم والحكم عليهم ، ولكن الحكومة كانت أضعف من أن تضطلع بعمــل متسم بالشجاعة كهذا العمل لذلك احتالت على تنفيذه فأرسلت تدعو الزعماء الثلاثة الى مقر وزارة الحربيــة وكانت حينذاك فى ثكنات قصر النيل التى أزيلت وبنى مكانها فندق هيلتون وقصر الجامعة العربية وادعت الوزارة أن سبب الدعوة هو التحضير لزفاف شقيقة الخديو ، ولــكن ترامى الى علم الزعماء حقيقة الدعوة ، فاتفقوا مع زملائهم من الضباط ، أن يراقبوا مبنى الوزارة وما سيجرى فيه ، ولما وصل عرابى وزميلاه الى الوزارة ، ألفوها غاصة بالضبــاط الموالين للحكومة ، وما كادوا يضعون هناك أقدامهم ، حتى وقع عليهم الاعتقــال ، ونزعت منهم السيوف ، وسيقوا الى السجن ، وسمع الاميرالاى محمد عبيد بهذا فدعا فى التو الضباط والجند الى الاحتشاد فاعترضه رئيسه فلم يحفل بالاعتراض وخرج بالآلاى الاول ، وهو آلاى حرس الخديو واسرع الى وزارة الحربية ، وكان الخديو مطلا من شرفة قصر عابدين فرأى الاميرای محمد عبيد وهو يخرج من ثكنات الحرس المجاورة للقصر ، فأرســل كبير ياورانه ليثنى البطل عبيد عن عزمه ، فنحاه جانبا وانطلق الى غايته كالسهم ، وحاصر مبنى الوزارة ببعض من كان معه من الجند واقتحم بابها بالباقى منهم وسمع عثمان رفقى وكبار الضباط بأمر هذه الغزوة فوثبوا من النوافذ ، التماسا للنجاة ، وكان من ضــمن الفارين ، استون ولار وهما ضابطان كبيران من الاجانب ، وبحث عبيــد عن عرابى واخويه فافرج عنهم جميعا ، واسرع الجند الى ميدان عابدين فتولى الفزع الخديو ، واستجاب فى

الحال لطلب الزعماء ، فأقال رياض من رئاسة الوزارة وعزل عثمان رفقى من وزارة الحربية .

وقامت الحرب بين بريطانيا ومصر ودارت معركة التل الكبير فقاتل محمد عبيد قتالا مجيدا فى هذه المعركة على راس آلايين من الجنود وبقى يقاتل حتى فنى جنود هذين الاليين جميعا ، ثم استشهد هو وسيفه فى يده ، ثم لم يعثر له على جثة ولم يقم له قبر حتى اليوم .

اما عبد الرحمن فهمى فهو بطل ثورة سنة ١٩١٩ المجحود الفضل الذى كان سكرتير لجنة الوفد المركزية وقد وقع على كتفيه عبء قيادة الثورة فى اشق أدوارها الا وهو دور بدايتها الذى كان فيه زعماء الثورة فى أوربا وكانت الاحكام العرفية البريطانية معلنة وكان بطش الانجليز كأعنف ما يكون . وقد حدثنى المرحوم الاستاذ امين الخولى عما اظهره عبد الرحمن فهمى فى قيادته للثورة من شجاعة نفس ، ورباطة جأش ، وحسن تدبير ، وسهر على المعركة ، وغيرة على جميع الصفوف ، وتوفيق فى كسب ثقة الشبان واهتمام بحركة العمال ، ودفع للعمل السرى ، وقد لفقت له السلطة البريطانية قضية سميت قضية المؤامرة الكبرى واستمرت هذه القضية تنظر من يولية الى اكتوبر سنة ١٩٢٠ ، ثم صدر الحكم باعدامه وخفف الى الاشغال الشاقة .

اين الشوارع والميادين والمدارس التى تحمل اسم البطلين ؟.. اين النصب التى أقيمت تكريما لهما ؟.. اين التماثيل التى صنعت اشادة بفضلهما ؟ .. الا نخجل ونؤدى بعض الواجب لهما بعد طول نسيانه .

طرائف إدارية

قرات فى مجلة « الادارة الدولية » مقالا عن أحد كبار رجال الصناعة فى اليابان هو « ماتسوشيتـــا » والارقام والحقائق التى تذكرها المجلة عن هذا الرجل تدل على انه من اكبر رجال الصـــناعة فى بلاده فهو مؤسس ورئيس الشركة الصناعية الـكهربائية اليابانية وحسبك ان تعلم ان هذه الشركة قد باعت فى السنة المـــاضية وحدها ما تزيد قيمته على ٨٢٣ مليونا من الدولارات ، وان صافى ربحها فى السنة ذاتها قد تجاوز الثمانية والثمانين مليونا من الدولارات لتعرف المـكانة التى لابد أن تكون لهذا الرجل ، لا بين رجال الصناعة والاقتصاد فحسب بل بين بنى قومه كافة .

ولـكنى لا اتحدث عن السيد « ماتسوشيتا » لانه يتمتع بهذه المكانة ، ولا لانه من رجال المال والصنـاعة الـكبار ، ولا لأن أرباحه الصـافية وحدها تزيد على ميزانيـــة كثير من الدول ، وانما رشحه للحديث أن للرجل افكارا فى الادارة ليست طريفـــة فحسب بل وغريبة أيضا . فمن أفكاره مثلا انه يضع فى احـــدى القاعات بابا مغلقا شبيها بأبواب حجرات الرؤســاء فى شركته ثم يسمح للعاملين فى الشركة فى وقت الاستجمام والراحة أن يطرقوا هذا الباب بأيديهم او بأى شىء آخر

تطوله أيديهم كقضيب من حديد مثلا ، وان يستمروا فى الطرق ما شاءوا ، تعبيرا عن الاحتجاج ضد أبواب الرؤساء المغلقة وضد القرارات التى تتخذ خلف هذه الابواب .

ومن طرائف أفكار السيد ماتسوشيتا انه يأمر بصنع تماثيل لرؤساء أقسام الشركة وكبار أعوانهم تشبه هؤلاء الرؤساء تماما ، لا ينقصها الا الروح ، ثم تصف هذه التماثيل فى احدى القاعات لا تكريما لهؤلاء الرؤساء ولا اشادة بفضلهم ، أو تنويها بحسن اثرهم بل ان هذه التماثيل تعلق لتستباح حرمتها على أيدى العاملين الغاضبين على رؤسائهم ، اذ ان لهؤلاء العمال اذا شاءوا أن ينهالوا على تلك التماثيل صفعا وركلا حتى تهدأ نفوسهم الثائرة ، وتشعر أعصابهم بالراحة بعد ان تكون قد انتقمت لنفسها من الرؤساء المغضوب عليهم فى شخص تماثيلهم التى تشبههم . وقديما كان السحرة يفعلون شيئا كهذا . فمن غضب على أحد يلجأ الى الساحر ، الذى يصنع لعدوه تمثالا يخزه بالدبابيس ويرشق فيه المسامير أو يحرقه ، ثم يذرو رماده فى الهواء ، فقد كان الناس يعتقدون ان ما يصيب الصورة يصيب صاحبها بعد حين . فما تزال فى نفوسنا رواسب من معتقدات أجدادنا والاعصاب الهائجة فى حاجة الى ما يرفه عنها . لذلك فقد أعدت بعض مدن الملاهى قاعة توزع فيها على الراغبين فى الترفيه عن نفوسهم أو التخفيف عن ضغط تعانى منه أعصابهم ، أطباق من الصينى ليقذفوا بها الى جدار فتتحطم ويسمع لتحطمها دوى عنيف تطيب له النفس المتعبة وتشعر على أثره بالراحة .

ومن هنا نستطيع ان نرى ان السيـــد ماتسوشيتا قد علمته ملايينه التي جمعها من الصناعة شيئا كثيرا من عالم النفوس ، فادرك انه ان لم يهيىء للغضـــب المكتوم في نفوس مرءوسيه متنفسا ، ولو صناعيا ، وان لم يبـــدد ابخرته المحبوســـة ولو بالاستعانة ، بالخيال والتمثال ، انقلب هذا الغضب الى قوة تدمر ، وتقتلع ، وتكتسح ، وتبتلع .

ان السيد ماتسوشيتا ليس رجل صناعة فحسب ، بل انه رجل سياسة أيضا ، فما أدركه هو يغيب عن كثير من رجال السياسة ، فلا يدركونه أبدا أو لا يدركونه الا بعد فوات الميعاد ، ولو وضع هـذا الرجل المجرب كتابا يضم آراءه وتجاربه لـكان كتابا نافعا ومسليا في آن واحد .

سطور خالدة

يقرا الانسان آلاف الصفحات نثرا وشعرا فى مختلف الفنون ، وفى مختلف أدوار حيـــاته من الطفولة الى الشيخوخة ، ولــكن تبقى ســـطور بعينها فى ذاكرته تتقدم سواها وتابى أن تتوارى أوتحتجب أوتترك مكانها لغيرها يحتله ويظفر به .

من هـــذه السطور الباقية ما قرأته عن حادثتين : احداهما وقعت فى افريقيا وفى القرن التاسع عشر ، وثانيتهما وقعت فى أوربا وفى القرن العشرين ، ولــكن يجمعهما جامع واحد ستتبينه بنفسك حالا .

أما السطور الاولى فجرى بها قلم فنان ضابط كان من بين قادة حملة نابليون على مصر فى أخريات القرن التاسع عشر وصف بها كيف اســـتقبل جنود جيش نابليون آثار الاقصر الرائعة حينما وصلوا اليها فى جيش أوفده نابليون ليطارد المملوك مراد بك الذى اتخذ من الصعيد قاعدة لقتاله مع الفرنسيين .

وصل الجنود الفرنسيون بقيادة الجنرال ديزيه الى الاقصر بعد أن لقوا فى زحفهم اليها عناء وشقاء ليس مثلهما عناء أو شقاء . فقد اجتمع عليهم حر الصعيد وعناء الطريق ، وقلة الزاد ، وأهوال الطاعون الذى يقصف العمر ، والرمد الذى يذهب بنور العـــين ،

والحنين الى الوطن وضعف الامل فى النصر ، وانقطاع أخبار الاهل ، ولكن « دينون » كان فنانا وكان لا يكف عن رسم وتصوير ما تقع عليه عيناه من آثار بلادنا ولا سيما ما تركه المصريون القدماء منها . وقد كتب يصف شعوره وهو يرى آثار الاقصر : رحت والقلم فى يدى اجرى من أثر الى أثر وقد تجاذبتنى الروائع فيما بينها.

لم يكن لدى ما يكفينى من الاعين والايدى ، ولم تتح لى قوة عقل تعين على أن أرى ، وارسم ، وأصنف ، كل الذى رأيته وهزنى هزا . على انى أخجل من حقارة رسومى اذا قورنت بهذه الاشياء الرائعة التى حاولت تسجيلها

على انه وصف فى موضع آخر حال فرقته العسكرية اذ رأت نفسها فجأة أمام معبدى الاقصر والكرنك ، فقال : لقد توقفت الفرقة كلها عن السير مشدوهة وانطلق اعضاؤها يصفقون فجأة بلا تدبير سابق ، ثم اطلقوا بنادقهم للتحية ، كما انطلقت الطبول والابواق ، ان شعور الجنود فى هذه اللحظة كان كشعور رفاق المكتشف الاسبانى البحار بالبو عندما شاهدوا لاول مرة المحيط الهادى ، مع فارق هو ان بالبو ورفاقه ، خرجوا وغايتهم أن يصلوا الى المحيط الهادى فقد كانوا يرتقبونه ، اما طيبة ، وروائع الاقصر فلم يزحف جيش ديزيه من القاهرة الى الصعيد الاعلى بحثا عنها.

أما السطور الاخرى فقد جاءت من كتاب « الايام العشرة التىهزت العالم» وقد وصف بها صاحب الكتاب عودة الجنود الروس من فنلندا بعد ان قامت الثورة الشيوعية فى اكتوبر سنة ١٩١٧ . كان هؤلاء الجنود فى أسوأ حالات الجنود المحاربين : جياع لا يجدون ما

ياكلونه ، عراة تمزقت ثيابهم ، وتعرت صـدورهم ، وظهورهم ، فى برد كالجحيم لا يرحم فى حين برزت من احذية بالية ممزقة أصابعهم ، زرقاء تكاد تقع من شدة الضعف والصقيع المدمر السـاحق . ولـكن لم يكد هؤلاء الجنود الذين اسـتحالوا أشبـاحا من الجوع والضعف والبؤس ، يصلون الى حدود بلادهم ، حتى اندفعوا الى مواطنيهم لا يسألونهم شيئا ياكلون او غطاء به يتدفأون أو شرابا يبقى فيهم الانفاس القليلة التى تتردد فى صدورهم التى برزت ضلوعها بل طلبوا شيئا يقرأونه .. نعم شيئا يقرأونه فقـد طال انقطاعهم عن الوطن ومن اخبار الوطن فتاقوا الى صحيفة أو كتاب .

الصورتان، وان باعد التاريخ والجغرافيا بينهما ، الا انهما صورة واحدة.. انه الانسان فى أشد حالات بؤسه وضعفه ومرضه ينتشى للمحة فن جميلة وينسى جوعه وعريه عندما يتجه بقلبه الى بصيص من المعرفة .. انه الانسان العظيم .

مظاهرات الطلبة

كانت الصحف الاستعمارية فى بريطانيا تعيرنا ابان البعث الوطنى بقيادة الزعيم مصطفى كامل ، بأن حركتنا الوطنية تقوم على اكتاف الطلبة يتصدرون صفوفها ويرفعون لواءها ، وكانت هذه الدوائر الاستعمارية

ترى فى هذه الظاهرة دليلا على عدم نضجنا السياسى ، لأن الطلبة فئة لم تتم تعليمها ، وبالتالى لم يكمل نضجها ، فتصدرها لكفاحنا السياسى عكس على هذا الكفاح خصائص الطلاب النفسية والعقلية ، فقدمنا العاطفة على المصلحة ، والخيال على الحقيقة ،

والحماسة على الدراسة ، والعنف على الرفق ، ولم يكترث مصطفى كامل والذين جاءوا بعده من زعمائنا بهذا الارجاف لان حركتنا الوطنية التى كان الطلبة قوامها ضيقت الخناق على الاستعمار والبت الشعب بكل طبقاته عليه وعلى أعوانه .

والآن وبعد اكثر من سبعين عاما مضت على الايام الاولى لكفاحنا بعد الاحتلال البريطانى ، يجتاح العالم بأسره حركة احتجاج يقودها طلاب الجامعة ويدفعون بها الى كل المجالات فى حياة شعوبهم ، ويعلنون بها سخطهم على انظمة الحكم ومناهج التعليم ، وأسلوب الحياة وطرق التفكير . فلم تعد صحف هذه الدول

التي كان يطيب لها أن تلقننا دروسا فى السياسة تبدى تعاليا على حركات الطلاب ، ولم نسمع منها دعوة الى تجاهلها بل على النقيض من ذلك أفسحت صدرها لأنباء حركات الطلبة ، وراحت تحلل وتعلل اسبابها ودوافعها ونافستها فى ذلك دور الاذاعة المسموعة ، والمرئية ، فقد دعت زعماء الطلبـــة فى بلادها ومن بلاد اجنبية ، وندبت أكبر مذيعيها ومعلقيها ليديروا مع هؤلاء الطلاب الاحاديث وكأنهم من كبار القادة .

وهكذا اثبتت الايام ان صحافة هذه الدول الاستعمارية كانت منافقة وكاذبة حينما أظهرت التأفف والاستنكار ، بل الازدراء والاحتقار ، لحركات الطلبة فى بلادنا حينما كانت هذه الحركات تكيل للاستعمار الضربات وتعريه عن أثواب التقى والفضل ، التى كان يتخفى تحتها ، لكن يجمل بنا أن نتجاوز هذه الدوائر الاستعمارية وصحفها الى هذه الظاهرة التى فاجأت كل مشتغل بالسياســة ظاهرة انفجار سخط الطلبة فى طول أوربا وعرضها بل فى طول العالم وعرضه .

والرأى عندى ان هذه الحركات هى حركات غضب وتذمر ، ولــكن لا ضد نظام بعينه ، ولا ضد فلسفة بذاتها . انما هى تعبير عن غضب الانســان المجرد ، الانسان الذى لاينتمى الى شعب أو دولة أو يتكلم لغة معينة من اللغات ، بل الانسان ابن الكرة الارضية ، فقد كان الانسان يؤمل بعد مجزرتين بشريتين خضنا فيهما فى الدماء ، الى الركب ، أن نثوب الى عقلنا ونعيش كما يجب ان يعيش الانسان ، وأن ندرك أن الله اعطانا عقلا لنفكر ، ولســـانا لنعبر ، فاذا اختلفت افكارنا تناقشنا وتنافسنا فى ميدان الحجة ، والعلم والفن ،

والتجارة ، والصناعة ، ولم نجرد سيوفنا لنذبح بعضنا بعضا كأن السيف والمدفع يقتل فكرة أو يؤيد مذهبا. ولكن هذا الامل الجميل العذب تحطم كما يتحطم كوب زجاج رخيص وتتناثر شظاياه ، وعدنا لنعيش فى رعب الارهاب الذرى، عشنا وراء حدود بلادنا ، كل منا ينتظر القذيفة الهيدروجينية الاولى ليرد عليها فيحترق العالم كله . عدنا ننفق الملايين على انتاج الاسلحة ، وبناء الجيوش ، عدنا الى حروب الضرائب الجمركية ، والسدود ، والى التكتل ، والانقسام ، عدنا الى أفكار التفرقة العنصرية واللونية ، والى الحروب الحارة المحدودة ، والحروب الباردة غير المحدودة ، عدنا الى عالم غنى متغطرس ، وفقراء يعيشون كالجرذان فى بيوتهم ، أو فى أحيائهم ، تلوح لهم السلطة بالعصى ،ويرفع القانون الاعمى أصابعه فى وجوههم . عدنا الى الكذب على الشعوب ، والى اتخاذ الامم المتحدة ، واعلى المواثيق ، وأرفع الافكار والاديان ، وسائل للكذب والتعصب والايهام . كان العالم منقسما فزاد انقساما. كان هناك شرق وغرب ، فأصبح الشرق أكثر من شرق، والغرب أكثر من غرب ، واصبح لدينا أكثر من المانيا ، وأكثر من هند ، وأكثر من قبرص ، وأكثر من صين ، وأكثر من كوريا ، وأكثر من فيتنام ، وأكثر من فلسطين .

فى فيتنام يتساقط الناس البسطاء الذين يريدون أن يزرعوا الارض ويبذروا الحب كما يتساقط الذباب وفى الشرق العربى الذى نسميه الشرق الاوسط ــ لسبب لا أدريه ــ تنتهك الحريات وتداس الحرمات .. فمن ذا الذى لا يغضب ومن ذا الذي لا يثور .

الثقافة والحرب

عندما تهزم الامم تعيد النظر فى خططها السياسية والعسكرية ، وتراجع نظمها الادارية والاقتصادية ، وتحاول أن تستزيد من العلم ، فتنقح برامج مدارسها وجامعاتها ، وبالجملة ان الأمم فى أزماتها تدقق فى كل ما كان لديها لتصلحه وتغيره وتستبدل به أفضل منه واقوم ، ولكن قل أن يخطر ببال هذه الامم ان هناك عنصرا أهم وأخطر من السياسة والجيوش والاقتصاد والتعليم يفعل فى أفكار المواطنين ، وفى نفوسهم ، ويدفعهم — ان صلح — للعمل والابتكار ويبث فيهم الأمل ، وفضائل الصبر والاحتمال ، ويلقى بهم — ان فسد والتوى — فى رذائل اليأس والتواكل والشك وحب الذات ، ونعنى بهذا العنصر « الثقافة » .

والثقافة — بطبيعة الحال — شيء غير العلم ، فالعلم هو غذاء العقول وسبيلها الى كشف حقائق الكون ، وتسخير القوى الكامنة فيه ، فهو لا يخاطب الوجدان ولا يوجه حديثه الى النفوس والقلوب ، ولا يعرف غير الارقام ، ولا يقيم نتائجه الا على ما هو ثابت ، أو ما يجب اثباته ، أما الثقافة فتحتضن الفن والادب وأساطير الأجداد ، وحكايات الاطفال ، وتتسع للموسيقى والغناء والرقص ، وهى لهذا أفعل ، فى تحريك النوازع

الانسانية ، وتوجيهها ، وتلوينها. وهى أقدر على توحيد الامم المبعثرة ، وشد عزائم الجماعات التى صادفها سوء الحظ فأفلت منها النصر ، وأحاطت بها المصائب ولعل لطف الثقافة وسحرها ، وكونها فى متناول المتعلم والجاهل ، والغنى ، والفقير ، والصغير ، والكبير ، مما يجنى عليها ، فتبدو لذوى الحل والعقد انها شىء قليل الشأن فتهمل ، ولو علموا حقيقة الامر ، لادركوا ان الحروب لا تقوم بين جيوش او شعوب بقدر ما تقوم بين ثقافات ، فاذا ازدهرت الثقافة فى وطن فاضت على من حولها من الشعوب فان ضاقت ثقافات الشعوب الاخرى بتفوق تلك الثقافات وسيادتها قامت الحروب ، فمن كانت ثقافته أقدر على بعث الامل فى المواطنين وعلى بث الايمان فى نفوسهم ، وفى أشعارهم ان لهم دورا فى الحياة كتب له النصر .

كان للفرس والرومان ثقافتان رفيعتان ولكن ما لبثت جذوتهما أن انطفأت فلم يعد لديهما ما يعطيانه للأمم ، فى حين جاء القرآن بثقافة انسانية استطاعت أن تنقى حياة العرب وطقوسهم وتقاليدهم ، من الوثنية الرخيصة ، والجاهلية الجامدة ، وأن تخلق منهم أمة وأن تضع أمامهم مثلا أعلى ، وأن تمنيهم بحياة أفضل وأرقى وأسمى ، وأن تقنعهم بأنهم حملة هذه الرسالة الجديدة فاندفعوا كالسيل فأغرقوا فى محيطهم الجديد امبراطوريتى العجم والروم وهم أقل من أهل الامبراطوريتين علما وافقر مالا واضعف جيشا وسلاحا

وقد يبدو لبعض المتعجلين ان التتار بقيادة جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك كانوا ارجالا بشرية كأرجال الجراد ، ادنى الى الحيوان المفترس ، من الانسان

المتحضر ، وانهم آخر الأمر بلا ثقافة .

والواقع غير ذلك تماما فهذه القبائل التى انطلقت من جانب سور الصين الى أوربا الوسطى عند أبواب « فيينا » كانت لهم حضارتهم التى تعينهم على أن يقوموا بهذا الغزو الكاسح ، وأن تتهاوى أمامهم الدول والعروش كبيوت من الورق ، فان ما خلفوه من أسلحة وملابس وطنافس وخيام ينفى عنهم تهمة التجرد من كل فن . فالنقوش والزخارف التى زينت سيوفهم وخناجرهم وسروج الخيل وعدتها تشى بفن دقيق ، اما ثقافتهم العسكرية فقد كانت فنا يحتاج الى مرونة الجسم والذهن معا . فالسيف والرمح فى يد الصبى التترى كانا كالفرشاة فى يد الرسام ، والقيثارة بين اصابع الموسيقى ، وقد كانت رياضتهم للخيل فنا قائما بذاته ، غزوا به الأمم والشعوب . وقد كانت لهم فوق ذلك اغانيهم وأساطيرهم وقد نجحت دولة المماليك التى بذر صلاح الدين أولى بذورها فى أن تقيم فى مصر والبلاد العربية امبراطورية مرهوبة الجانب انزلت الهزيمة المدمرة بالصليبيين والمغول لان المملوك المجلوب من بلاده فى آسيا الوسطى وعند بحر الخزر كان يلقن أصول الدين والشريعة ويحفظ القرآن ويجوده ، ثم يتعلم الفروسية وفنون القتال ، ومن هنا استطاعوا أن يقودوا العرب ، وأن يتركوا فى القاهرة الآثار الجميلة من مساجد وأسبلة وتكايا ومدافن ومدارس ومستشفيات .

فنقطة الابتداء فى اصلاح الامم ، هو أصلاح نفوسها وقلوبها ، والسبيل الى ذلك هو بث الحياة فى ثقافتها القديمة واظهارها لابناء اليوم فى أجمل صورها ، قريبة لهم فى متناول افهامهم وأذواقهم .

حضارة مريضة

اثار اغتيال روبرت كيندى تساؤل المشتغلين بمستقبل الانسانية فقالوا : أهناك أمل فى أن تشفى حضارة أوربا وأمريكا المعروفة بالحضارة الغربية ، من الداء الذى ولدت به وعاشت معه وبقى الى اليوم طابعها المميز وأعنى به داء العنف الوبيل .

والذين قرأوا تاريخ الحضارات الكبرى ، كحضارة مصر وبابل ، واشور ، والصين ، والهند واليونان ، والرومان ، لا يذكرون ان حضارة سبقت الحضارة الغربية ، قد انهمكت فى قتل الناس الجماعى كما انهمكت هذه الحضارة الاخيرة فى هذا النشاط الشيطانى المخرب ، فانها لم تقنع قط بقتل الافراد ، أو افناء الجيوش ، فشهيتها لم تكتف بغير التمثيل بالشعوب جملة واحدة .

ولا ينكر احد ان التاريخ الإنسانى ملىء بالمذابح والانقلابات والمؤامرات والدسائس الحقيرة والخيانات ، ولكن أوربا فى خمسة قرون بلدت ما اقترفته الانسانية كلها فى أربعين قرنا من جرائم الابادة والتعذيب وفظائع الاضطهاد والرعب بكل اسم : باسم الدين ، وباسم الحرية ، وباسم الوطنية ، وباسم الاستعمار ، وباسم نشر المدنية ، وكان افظع وأقبح ما ارتكب ما تورطت

فيه هذه القارة العجيبة فى ظل كنيسة المسـيح الذى دعانا لنحب أعداءنا ولنصلى للذين يلعنوننا . لم يعرف تاريخ الانسانية ما عرفه تاريخ أوربا من مذابح كمذبحة سان برتلمى مثلا التى ذبح فيهـا الوف بروتستانت فرنسا فى ليلة واحدة كما يذبح الجزار الخراف . ولما رات أوربا انها فى حاجة الى عمل ضخم ، تتوج به هذه المذابح والمجازر ، وتعلن به تفوقها فى التدمير والتخريب واسالة الدماء انهارا ، شنت حرب سنة ١٩١٤ التى دامت أربع سنين والتى دمرت خلالها المدن ، وخرجت منها الامم كسيحة جريحة ، تنزف منها الدماء وتفيض من جروحها صديدها ، وتهذى هذيان المجنون . فقد تحطمت المثل وكفر الانسـان بالله وبالزمالة البشرية ، وكلما اشتدت به أوبئة ما بعد الحرب ، من بطالة وجوع وكوارث اقتصادية ، وأزمات سـياسـية اتخذت من الرذيلة مسكنا ، واصبح العزاء والسلوى فى الخروج على كل خلق والتجديف بكل مبدأ ، والسخرية من كل دين ومات فى هذه الحرب من شباب أوربا عشرات الملايين كما جرح فيها عشرون مليونا ، وتيتم فيها تسعة ملايين طفل ، وترملت فيها خمسة ملايين زوجة ، ولو بعث القتلى فى هذه الحرب وساروا صفوفا كل صف أربعة لاستمر سيرهم على هذه الصورة ثمانين يوما بلياليها ، لا يكفون عن السير فيها لحظة واحدة ، فلما وضعت الحرب أوزارها وبعد شبح الحرب بصورته الـكالحة خيل لذوى النوايا الحسنة أن هذه هى آخر حرب عالمية تشهدها الانسانية ، ولـكن اثبتت الايام انهم كانوا مثلا أعلى للسذاجة فان حرب سنة ١٩١٤ كانت مجرد تجربة لحرب مثلها اندلعت نيرانها فى سنة ١٩٣٩ واستمرت ست سنوات .

ان اسلحة حرب سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لاسلحة سنة ١٩٣٩ كلعب الاطفال ، استأثرت أوربا وحـدها بالمبتكرات المدمرة والمخربة ، فلما شبت ابنتها أمريكا عن الطوق ، وتلقت دروس العنف طبقتهـا فى العـالم

الجديد ولم تلبث ان تفوقت على أمها الشريرة وغلبتهـا فقد بدأ الأمريكان حينما غزوا الدنيا الجديدة فى القرن السادس عشر ، بسحق الهنـود الحمر أهالى أمريكا الاصليين وابادتهم ، فكان ذلك أولى تجاربهم فى الابادة الجماعية ، ثم ثنوا بخطف أطفال الزنوج من افريقيا ،

ثم خطف النساء والشيوخ والشباب ، وترحيلهم الى أمريكا فى مراكب كما تساق البهائم ، ثم فرضوا عليهم عبودية ورقا لم تشهد الانسانية شيئا فى مثل قسوتهما وتجردهما من كل عاطفة ، ولذلك كانت أمريكا موطن العنف الاشد هولا ، فأصبح القتل رياضة ومتعة ، واصبح القتل تجارة ومهنة ، واصبح القتل سياسـة وعلما ،

واصبح القتل ابتكارا وفنا ، واصبح القتل وسيلة وغاية وحسبك ان تطالع كشف حساب الجريمة فى أمريكا فى عام واحد لتؤمن باننا لا نبالغ ولا نسترسل مع الخيال ففى عام واحد وقع فى أمريكا احدى عشر الف جريمة

قتل ، وستون الف جريمة سطو بالقنـابل والمدافع الرشاشة ، وخمسون ألف اعتداء بالسلاح ، أما مايسمى بالحوادث العارضة فقد بلغت عدتها مائة وخمسين الف حادث . لذلك ليس غريبا ان يقتل فى هذا المجتمـع

الاخوان كيندى ، وان يغتال معهما مارتن لوثر كنج ، وأن يستمر تمجيد الجريمة فى أفلام توزع على العالم تنشر فلسفة العنف وتثير خيال الناس بما تؤدى اليه هـذه الفلسفة .

الدولة العصرية

نردد هـــذه الايام كثيرا لفظى « الدولة العصرية » فمنذ يونية الاسبق ونحن نلوك هذين اللفظين ، اذ منا من يعتقد ان « الدولة العصرية » احدى الوصـــفات السحرية التى تحقق الرجاء وتكتب الشـــفاء ، وترد البلاء . ولـكننى ما أكاد أسمع اسم « الدولة العصرية» حتى اتعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ذلك لأن الدولة العصرية مسخ ولد بنصف أعضائه فله يد واحـــدة ، وعين واحدة ، وأذن واحدة ، وله نصف عقل ، ونصف قلب وبالتالى نصف ضمير . وقد تسألنى ما المقصود بأن الدولة العصرية هى مسخ لا يزيد عن أن يكون نصف آدمى . فأقول لك انها دولة تقوم فى الظـــــاهر على المسيحية وتؤمن فى الواقع بالعنف ، فهى نصف مسيحية ونصف متبربرة وهى بنصف ضمير لانهـــا تحب الخير لنفسها وتحب العبودية والضعف لغيرها ، وهى بعد دولة الغرب دون دولة الشرق ، ودولة المـــال دون القلب ، ودولة الاقوياء دون الضعفاء ، ودولة المنتصرين دون المنهزمين ، دولة البيض دون الملونين ، ولذلك فهى تقفز الى الفضاء فرارا من مشكلات الارض التى عجزت عن حلها : مشكلات العمل ، والحكم ، والمال ، والتجارة ، والحدود ، والحروب ، مشكلات الاضرابات المتعددة ،

وميزانية المدفوعات العاجزة ، ومخاطر التضخم الفادحة وغلاء المعيشة الساحق والخوف من آسيا وافريقيا المستحكم . وقد تقول لى : أتنكر انها أعطتنا الطيارة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ؟ أقول لك : ما قيمة هذه الطائرات التى تلغى المسافات اذا كان هناك ملايين من البشر كتب عليهم الا يفارقوا القرية التى ولدوا فيها او الجحر الذى القى بهم الدهر فى ظلامه ، اما لفقرهم المدقع ، وضعفهم المحزن ، واما لأنهم يخضعون لحكم يقيد الحركة والهمسة ، ويحصى على الناس لفتات رؤوسهم وخطرات قلوبهم وقد تقول لى : أتنكر أن الدولة العصرية قد أعطتنا السينما والراديو والتليفزيون وانه بات بمقدورك وأنت مستلق على سريرك أن تطوف حول العالم مستمعا الى لغات لا حصر لها ، ولهجات لا علم لك بها ، والى موسيقى الشرق والغرب ، والزنوج والاسكيمو ، وخطب كل المذاهب ، ونداءات كل العقائد وأخبار كل الامم ، فأقول لك ما قيمة هذا كله والناس يزدادون بمدا ، والخوف من الحرب هو قانون وجودهم وباعث نشاطهم ، ومحرك قادتهم وساستهم .

فالدولة العصرية ادارة رائعة المظهر خبيثة المخبر ، تذهل العقول بما تنتج وهى كالساحر تخرج من جعبتها افانين لا يدركها عقل ، وحيل لا يحيط بها فكر ولكنها تشكو من عيب يحيلها الى أداة قتل وازهاق وتدمير وابادة وتعذيب . والعجيب ـ وهى كما يقولون دولة العلم ـ انها تعمل النقيضين فى آن واحد ، تبذل آلاف الجنيهات للبحث عن شخص ضل طريقه فى الصحراء ، أو اختفى قاربه فى الماء ، ثم تقتل فى نفس الوقت مئات الالوف من الابرياء بقنبلة واحدة أو قنابل عديدة وقد استطاعت هذه الدولة ان ترفع مستوى صحة الافراد

بعلم الطب وعلم الصحة ولـكنها مع ذلك حضارة قذرة فلم يسبق للناس ان تجرعوا فى ظل اية حضارة سابقة ما يتجرعه أهل هذه الايام من سموم الخمور والسجائر والسيجار ، فضـلا عن المخدرات والمنومات والعقاقير الهادمة للعقول والنفوس ، وقد خففت هذه الدولة آلام الجراحة بما وفقت اليه من وسائل التخدير والتنويم ، ولـكن ما تسببه هذه الحضارة نفسها من آلام الجوع وأهوال الجروح والبثور بقنـابلها السـامة وغازاتها الخانقة وميكروبات حروبها شيء يفوق كل وصف وكل بيان وهى مع ذلك ليست الدولة المنتصرة فقد هزمت فى فيتنام مرتين : مرة حينما حاربت فرنسا هناك ، ومرة حينما حاربت فى نفس الميدان امريكا ، كما هزمها الجزائريون وأكثرهم من الفلاحين وأهل الجبال .

ولـكننا اذا لم نكن من المؤمنين بالدولة العصرية الا اننا نؤمن بالعلم وندعو اليه لان من تقاليدنا الدعوة اليه والايمان به ، ولأننا بذلنا فى سبيله وبنينا من قواعده ما لم يبن احد سوانا ، والعلم شيء والدولة العصرية شيء آخر فان العلم قد استحال فى يد الدولة العصرية شقاء وخرابا ودمارا ، لانها دولة مسخها الشـيطان الذى اتخذته الها ، والانسانية فى حاجة الى دولة جديدة يحترم فيها العلم الناس ويهديهم ويؤكد ايمانهم بالحق والعدل والحب .

الرءوس الحافية

من المشكلات التى تستحق عنايتنا مشكلة الرءوس الحافية ولست أعنى بالرءوس الحافية رءوس الجهال أو رءوس الفارغين الطافين على سطح كل مجتمع ، وان كان العنوان يتسع لهؤلاء ولكنى قصدت فى واقع الامر مشكلة لباس الرأس بعد أن عزل الطربوش عن عرشه الذى كان يتربع فيه فوق الرءوس .

والحق ان مشكلة الرءوس الحافية مشكلة فى بلادنا مزمنة ، فنحن منذ اكثر من أربعين عاما اى منذ قرابة نصف قرن ، والطربوش يؤرقنا ويزعجنا ، ويثير من المناقشات والمناظرات أكثر مما تثيره مشكلات حياتنا الكبرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كان فريق من مفكرينا يقول : كيف يبقى الطربوش على رءوسنا ، وليس هو بلباس قومى فأجدادنا لم يعرفوه لأنه زى يونانى ، نقله الينا الاستعمار العثمانى ، وقد راح فى أوربا رمزا على الفساد الشرقى ، فقد كان الطربوش ولقب « الباشا » عنوانين على ما انتهت اليه سمعة الدولة الشرقية فى أوربا من تدهور ، وقد سخر به وعبث مؤلفو المسرحيات ، ومخرجو الافلام ، وتشبث بالطربوش آخرون ، فقالوا : ان الطربوش أصبح رمزا الى المصريين وبعض العرب والاشمئزاز منه هو فى

واقع الامر شعور بالنقص ، فما أعجب به الاوربيون جميل فى نظرنا ، وما كرهوه قبيح عندنا ، وما تلبسه الامم الاخرى من ازياء أحق بالسخرية من الطربوش .

فما يلبسه الرجال من أهل اسكتلندا أشبه شيء بفساتين السيدات القصيرة ، فهو يكشف عن السيقان ويبدو غريبا على رجال غلاظ ذوى شوارب يخوضون أحيانا المعامع ويحملون فى أيديهم السيوف والمقامع، وما يلبسه الرجال من أهل أوربا الشرقية لا يقل عن الزى الاسكتلندى اثارة للضحك ، فمن طراطير الى أثواب فضفاضة تثير لوعة الآنسات اللواتى يحببن الاثواب التي تظهر الخصر النحيف والعود اللطيف وتعين على الخطوة الرشيقة والوثبة الأنيقة ، مع أن أصحاب هذه الاثواب النسائية هم من أشداء الرجال فى الجبال ولكن هؤلاء ملأت الثقة نفوسهم فما عادوا يحفلون بهمزات الساخرين ولا لمزات الناقدين ، وكان كبار مفكرينا يقولون : أن الطربوش هو الذى عاق تقدمنا وجعلنا أمة لا تقاوم أعداءها وقال آخرون : ان الاتراك غزوا أوربا واقتحموا عليها أسوارها وهم يلبسون الطربوش ، ثم هزموا اليونان الذين دفعتهم أيدى لويد جورج وأنداده من الاستعماريين فى أوربا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها أى فى سنة ١٩١٩ ، فسحقت جيوش الاتراك بقيادة مصطفى كمال فتريلوس اليونانى وكان الاتراك فى هذه الحرب الاستقلالية يتوجون هاماتهم بالطربوش ،

فلما خلعوا الطربوش وخرجوا على الشريعة الاسلامية ونبذوا الحروف العربية واحلوا محلها الحروف اللاتينية ، وقطعوا صلتهم التقليدية بالعرب عاشوا داخل حدودهم لايؤثرون فى سياسة الدنيا ، ولايساهمون فى انتاج الانسانية الادبى أو الفكرى بقليل أو كثير .

ولـكن الطربوش فى بلادنا خلع بأكثر الاسـاليب ديموقراطية فلم يصدر قانون بتحريمه كما فعل كمال أتاتورك فى بلاده ، ولم ينزعه أحد من فوق رأس مصرى بالقوة ، ولم يسخر به انسان ، ولم تشيعه صحيفة بالهزء ، فمات موتا طبيعيا كآدمى بلغ غايـة العمر فلفظ أنفاسه وهو يتثاءب . ولكن لم يستطع أن يحل محله الشاغر غطـاء رأس آخر ، فأصبح أشبه شيء بملك أسبانيا الذى خلع وانقضى نصف قرن على خلعه دون أن يرثه ولى عهد ، ودون أن تتحول الملكية الى جمهورية والناس بغير غطاء رأس يتعرضـون فى الصيف لضربة الشمس ، وفى الشتاء لزمهرير البرد ، ورذاذ المطر ، وفينا شيوخ لايحتملون تكاليف هذه الروح الرياضية المفروضة عليهم وبقاء مكان الطربوش شـاغر يذكرنى بعاهة من عاهاتنا الفكرية وهى عاهة العجز عن اكمال السير الى آخر الطريق ، كأنما نخشى دائما ان ننطق الجملة كاملة ، فاتقاء للمسئولية نبتلع خاتمتها ، والخوف من المسئولية يلاحقنا حتى فى ميادين اللعب الرياضية فنحن نبدأ زحفنا فى ميدان الـكرة مصرين حتى اذا بلغ اللاعب منا هدف الاعداء وحانت سـاعة التسـديد والاصابة ، ارتبك وتعثر فى الكرة ولم يحسن الرماية ، وأفلتت منه الفرصـة . ان مشكلة الرءوس الحافية مشكلة روحية وخلقية ، فلنواجهها بشجاعة الشجعان وسنكسب من تلك المواجهة مرانا على حل المشكلات حتى النهاية بغير خوف أو تردد .

بصيرة الأعمى

من الانباء الصغيرة التى لم يلتفت اليها احد ولم أر عليها تعليقا ، بل لم أر لها فى صحفنا أثرا نبأ تسعة من العميان أتوا شيئا عجيبا وعظيما وجديرا بأن تحييه كل صحيفة فى كل بلد وسط مشكلات العالم المتفاقمة التى تزداد تعقيدا ولا نجد لها حلا .

تسعة من المكفوفين الذين نزلت بهم مصيبة العمى فلم تهد لهم عزما ، ولم تصرفهم لا عن التعلق بالحياة فحسب ، بل ولا عن الاستجابة لغريزة الطموح المركبة فى الانسان ، فأقدموا على مشروع يجفل منه المبصرون ولا تساور فكرته الاقوياء الاشداء .

قرر العميان التسعة أن يتسلقوا جبل كلمنجارو فى كينيا وأن يصلوا الى قمته التى تتوجها الثلوج طوال العام ، اذ تعلو عن سطح البحر بنحو ستة آلاف متر

ولا شك عندى فى ان هؤلاء الرياضيين المجازفين لم يقدموا على هذا المشروع الا بعد أن استعدوا له استعدادا طويلا ، تحملوا فيه متاعب التسلق والسقوط والسير على السراط ، ثم الهبوط وتحسس الطريق فى حالتى الاتساع والضيق ، فارادة هؤلاء الشجعان المؤمنين بانفسهم لم تعوضهم عن نور البصر فحسب ، بل زودتهم بنور البصيرة ايضا فادركوا على النورين معا أن ليس فى هذا الكون كله أقوى من ارادة الانسان ،

وان الانسان الذى يريد ويعرف ما يريد ، لا تقف فى وجهه العقبات مهما بدت أنها غير قابلة للتذليل .

وتاريخ الانسان كله يشبه محاولة العميان التسعة ، وهم يتسلقون جبل كلمنجارو المرتفع الشاهق ، فالانسان حينما بدأ حياته فى هذه الكرة الارضية فى الكهوف والمغارات عاريا لا يجد ما يرد عنه عوادى البرد والحر ، اعزل لا يجد السلاح الذى يقيه وحوش البر والبحر ، جاهلا كل ما يحيط به لا يعرف ما الرعد ولا ما البرق ، خائفا من هزيم الرياح ، ومن ظلام الليل يشقى شقاء مضنيا ليجد قوت يومه قبل أن يخترع أدوات الصيد ، وأوعية الدار ، وقبل أن يهتدى الى كشفه الاعظم ، الا وهو الزناد الذى قدح شرارة النار الاولى ، فأضاءت له طريقه الى الحضارة ، فجرى فيه اشواطا بعد أشواط ، فعرف البخار والكهرباء والبترول والغاز الطبيعى حتى فجر الطاقة الذرية .

ان عميان كلمنجارو قد سبقتهم الى الطريق الذى سلكوه الى قمة الجبل الشاهقة المتوجة هامتها بالثلوج آخرون مبصرون ولكن الانسان الاول اى جدنا الاعلى سلك طريقه الى الحضارة والمعرفة ، وهو أشد عمى ، وأضعف حيلة ، من أحفاد أحفاده فى كينيا. واذا جاز لنا ان نتصور ان جدنا الاول بعث ثم دعى ليشهد مجازفة عميان كلمنجارو وهم يتسلقون صخور الجبل الوعرة ، ويتخبطون فى ممراته الملتوية ومسالكه المسدودة ، لابتسم ابتسامة عريضة ملؤها الرضا وقال : ان هؤلاء أولادى حقا ، فقد تسلقت جبل الحياة الأشم منذ عهود سحيقة كما يتسلقون جبلهم الشامخ اليوم . فشرارة الحياة التى انقدحت فى نفسى لا تزال متقدة تبعث فى النفوس الطموح الرفيع والأمل الذى يرفض الهزيمة .

أهل الكهف
في العصر الحديث

« لا جديد تحت الشمس » عبارة نقولها ولا ندرى انها تمثل الحقيقة بأكثر مما نعتقد ، وقد حقق بعض العلماء أخيرا معناها اذ كرروا قصة أهل الكهف . فدفعوا بشابين الى كهفين تحت الارض وتركوهما وحدهما ، لا يتصلان بأحد ولا يسمعان صوتا بشريا ، وليس معهما ما يستضيئان به أو يدفعان مرارة الملل وآلام السأم وعذاب الوحدة .

وكانت الغاية من هذه التجربة أن يدرسا رد الفعل الانسانى فى الوحدة والسكون ، توطئة لارسال الانسان الى الكواكب البعيدة ، كالمريخ والزهرة ، التى لابد لقطع الرحلة اليهما شهورا طويلة . ماذا يفعل الانسان اذا طالت وحدته ؟.. ماذا يصيب أعصابه ؟.. كيف سيحسب الايام التى ستمضى وتتعاقب ، وهو لا يمر فى ظلام الليل بعد نور النهار ولا يميز السبت من الاحد ولا الربيع من الخريف فى كهفه الذى أعد ليحتفظ بدرجة حرارة معتدلة ومستقرة .

ولست أود أن احدثك عن نتائج هذه التجربة وتفصيلاتها فأنا لم أسمع عنها الا أقل القليل والامانة العلمية تقتضينى الا احدث الناس الا فى الثابت الصحيح من الوقائع والحقائق. ولكن أود ان أنتفع بهذه التجربة

لغاية غير الغاية التى أعدت لها أريد أن انتفع بها فى اظهار فشل حضارة الانسان فى تهيئة مكان لنفسه يعيش فيه هانئا وهادئا وسعيدا .

فالمدن الحديثة فى عواصم العالم كله ليست الا جحيما الفنا العيش فيه ، حتى أصبحنا لا نشعر بأننا نتقلب فى أحضان لهيبه المتقد . فالثورة الصناعية التى قادت خطى الانسان الى هذا التقدم الهائل الآلى والفنى أتاحت للانسان صنوفا من الراحة والمتعة المادية والذهنية لم يعرفها أجداده ، بل آباؤه . ولكن الانسان الذى يحقق هذه الاجهزة السحرية التى تنقل اليه أصوات الناس وصورهم من أقصى الاماكن ، والتى تنقله هو من مكان الى مكان آخر فى أقصى المعمورة ، بسرعة يسابق بها بساط الريح ويسبقه ، والذى وضعت بين يديه الكتاب الانيق الجيد المصقول المزين بالصور الملونة الباهرة التى تكاد تنطق من فرط جمالها واتقانها ودقتها ، هو الانسان الذى دفعه حب الراحة والرفاهية الى التجمع — فى قصر نظر رهيب ومدمر — فى المراكز التى تتاح فيها الاعمال وتكثر الارزاق فاحتشد وتزاحم تزاحما جنونيا فيما يسمى بالمدن واتسعت رقعة هذه المدن طولا وعرضا وارتفاعا وعمقا ، فأكلت مساحات من الريف الهادىء النظيف وأقامت ناطحات السحاب وشقت الارض لتقيم انفاق القاطرات الكهربائية والبخارية ، وأقام الانسان فى هذه المدن مصانعه لتقذف فى الهواء بدخانها وقذف هو بدخان سجائره وسيجاره واشتدت الضوضاء وأصبحت السرعة الجنونية فى الاكل والشرب ، والكلام والقراءة ، والتسلية والضحك ، والغضب والرضا ، والحب والكره ، شعار هذه الحياة بل سرها وجوهرها. ان الانسان المثقف المتحضر حطم الغابات

وازالها من الوجود شيئا فشيئا وطارد حيـــواناتها ، وطيورها ، فحل محلها ، ولم يدع وسيلة لتلويث حياته الا فعلها ، حتى البحر والمحيط على اتساعهما لوثهما . ومن الامثلة الصارخة غرق ناقلة البترول « تورى كانون » التى تسربت منها حمولتها من البتـــرول فغطت وجه مساحة من البحر كانت تعيش فيها مئات من الالوف من الطيور البحرية ، وقد ماتت هذه الطيور كلها لأنها لم تستطع أن تطير فى الماء المثقل بالبترول ، ولان الماء الملوث به قتلها . واذ أكتب هذه السطور أسمع أن بئرا للبترول فى المحيط الاطلسى تجاه مدينة كاليفورنيا يتدفق منه البترول فيهدد الحياة فى كاليفورنيا كلها بمخاطر عديدة .

من أجل كل هذا نتمنى ان يذيع علينا العلماء الذين اعادوا تجربة أهـــل الـكهف وصـــفا لمتع وجـــدها الشابان اللذان عاشا شهورا فى ظلام الـكهوف ووحدتها عساهم يقنعون أهل المدن بأن الحياة الصاخبة الملوثة ليست هى نعيم الانسان الذى يجوز له أن يضحى فى سبيله كل ما حصله فى حياته الطويلة من تجربة وحكمة

الإنسان الخالق

استمر برنامج اذاعي فى احدى الاذاعات الاجنبيــة عشرين سنة كاملة ، والف المستمعون فى طول البــلاد التى تذيع محطتها الرئيسية هذا البرنامج وعرضها ، أن يعيشوا مع ابطال هذا البرنامج حتى باتوا يحسون ان هؤلاء الابطـــال أفراد من العائلة يسرون لأفراحهم ويحزنون لمصائبهم ، ويشــتاقون الى من غاب منهم ويفرحون بعودة العائدين ، وأصبحت أسماء ابطـــال هذا البرنامج تجرى على السنة أفراد الشعب يرددها كما يردد اسماء الآدميين الاحياء . ولما تقرر وقف هذا البرنامج لسبب لم أتبينه ، حزن الشعب كما لو فقــد عائلة من اعز العــائلات عليه عرف افرادها واحـــدا واحدا ، وعرف مشكلاتهم واعجب بخفيف الظل منهم واحتمــل سخف الثقيل من أعضــائها . وأبنته أكبر الصحف واكثرها وقارا ، وفى عبارة التأبين لهجة حزن بادية . لقـــد كان البرنامج مذكرات زوجــة طبيب استطاع بفضـــل علمه أن يعرف أسرار العــائلات ، واستطاعت زوجته الفضولية أن تعرف هذه الأسرار ، وأن تذيعها ، فعرفها شعب بأسره . وخففت عنه متاعب حياته ، وامدته بالتسلية والعزاء والصحبة المؤنسة .

وهكذا يعطينا الفن دليلا جديدا على انه ســـاحر

مجيب جدا ، وانه يستطيع أن يحقق مالا يستطيعه العلم أو الحكمة ، فالعلم والحكمة وحدهما بغير الفن لم يكونا قادرين على جعل الحياة الانسانية محتملة . فالفن هو رفيق الانسان فى سيره الطويل فى حياته المديدة المحفوفة بالمتاعب والمكاره والمخاوف والمجهول .

وليس الفن الا آية من آيات قدرة الانسان على الخلق ، وهى القدرة التى تبطره فتجعله يحسب انه اله هذا الكون وسيده . فخيال الانسان حينما كانت الانسانية فى طفولتها هو الذى جرأه على أن يخلق بيديه الآلهة من خشب ، أو حجر ، أو حديد ، ثم يعبدهم ولما تقدم وتهذب فنه جعل هذه الآلهة أفكارا وأساطير وجعل هذه الآلهة تحب وتحارب ، وتحيك المؤامرات وتثير الفتن . ان خيال الانسان هو الذى خلق للعربى اللات والعزى وخلق من قبل للمصرى ايزيس واوزوريس وحوريس وخلق للاغريقى زيوس وفينوس وهكذا .. ولما كبر وشب عن الطوق وعرف كثيرا عن الكون الذى حوله زهد فى هذه الصناعة ، ورأى ان الانسان أكبر من آلهته التى كان يخلقها ، فكانت هذه الشخصيات التى ابدعها المؤلفون والشعراء والقصاصون فعاشت مع الناس أكثر مما عاش الابطال الحقيقيون ، وألهمتهم وأوهمتهم ، وتعصبوا لها ، واختلفوا بسببها ، وألفوا الكتب ووضعوا الرسائل وقاموا بالبحوث والدراسات كمجنون ليلى ، وهاملت وفاوست ، وأحدب نوتردام . هذه الشخصيات أبقى على التاريخ من أبطال التاريخ الحقيقيين الذين عاشوا فى دنيانا وأحبوا وحاربوا وانتصروا وهزموا .

وهؤلاء الابطال الحقيقيون أمثال صلاح الدين ، ونابليون ، وقيصر ، وانطونيو ، يعرفهم التاريخ ، ولكن

النـــاس تعرفهم عن طريق القصص ، والمسرحيات ، والقصائد ، والاساطير ، ففى التاريخ يعيشون كسباع حدائق الحيـــوانات فى اقفـــاص يروحون ويفدون ، لا يتجاوزون بضعة أمتار مربعة . أما فى عالم الخيـــال الفسيح فهم يحلقون فى أجواء الفضاء ، ويقولون كلاما جميلا ، لم يخطر على بالهم ، وينشرون حكما عاشـــوا وماتوا دون أن يتفوهوا بعشر معشـــارها ، وفسروا هزائمهم واعتذروا عن أخطائهم ، وبدوا أعظم بطولة ، مما هم . فدين الفن فى اعناقهم لا يرد ، أما دينه فى اعناقنا نحن الآدميين ، فنؤديه بحبنـــا المتجدد للفن ، هذا الحب الذى نرثه عن الآباء والاجداد ونورثه للأبناء والاحفاد .

الثورة الدائمة

كنا شبانا اقرب أن نكون صبيانا وكان لنا صديق او زميل يحسب نفسه أديبا كبيرا ، وخطيبا مفوها ، وشاعرا لايشق له غبار ، وفى حقيقة الامر ، أن صاحبنا نموه العقلى توقف بسبب اصابته بحمى شوكية لذلك كان أدبه وشعره هدفا لسخرية الاشقياء من أصحابه ، وقد كانت سخريتهم دائما مدائح مبالغ فيها ، ولكنه لطيبة قلبه كان يعد ذلك ثناء مشروعا يتقبله أحيانا متواضعا واحيانا معقبا عليه بمزيد من المدح يضفيه على نفسه .

وفى ذات ليلة دعينا الى حفلة زفاف فنصب صديقنا نفسه خطيبا فبدأ خطبته بقوله : « فى هذه الليلة الليلاء » . فضج بالضحك الذين يعرفون اللغة العربية ، لأن الليلة الليلاء هى الليلة الحالكة السواد التى تنعقد فى سمائها المكفهر سحب الهم والغم ، ولكن صاحبنا كان يحسبها الليلة التى تفيض بالضياء وتتألق بالهناء .

ولست أدرى لماذا أذكر صاحبنا المتشاعر كثيرا ، وأذكره بصفة خاصة ، حينما أسمع فى احدى الاغانى الشاعر يصف لواعج حبه فيقول للحبيب : « توحشنى وانت وياى » .

فهذا الشاعر لابد أن بينه وبين زميل الصبا صلة قربى ولو انه شاعر عظيم لأن هذا ليس سوى أقبح الهجو فى الحبيب وليس بعده ذم وهجو .

فالحبيب هو انس فاذا كان قربه من المحبوب لايزيل عنه الوحشة فانه أشبه شيء بماء البحر يشربه الانسان فيزداد عطشا . فالحبيب جدير بأن يملأ على محبه الدنيا بهجة ، وأن يمتعه بالرى والشبع ، فاذا كان القرب منه على العكس وحشة ، فهو والعياذ بالله حبيب من نوع يحسن أن يفر منه المحبون ، وأن يلتمسوا لأنفسهم النجاة من حبه ، والوقوع فى حبائله .

كذلك اذكر زميل الصبا المتشاعر ، واذكر سخرية الناس به كلما قرأت كاتبا يود أن يثنى على ثورة من الثورات فيقول منها : « انها ثورة دائمة » لعلمي بأن الثورة الدائمة هي الثورة الخائبة أو الفاشلة ، ذلك لان الثورة هي فى تاريخ الامم بمثابة عملية جراحية تلجأ اليها الأمة حينما يستعصى أصلاح الأنظمة القائمة ، فلا ينفع معها الا الاقتلاع من أساسها والالقاء بها فى الماء ليشاد مكانها بناء جديد لا صلة له بالبناء القديم ويستعمل لفظ الثورة لبيان انها تنقض على أنظمة فاسدة، ولكن هذه الانظمة مع فسادها يسندها الحكم القائم قبل الثورة ويعطيها صفة الشرعية كذبا وبهتانا فاذا نجحت الثورة اصبحت الثورة نظاما مشروعا ، وأصبح عملها شرعيا وجائزا ، واصبح الانتقاض عليها هو الثورة أو ما نسميه بالثورة المضادة .

فاذا تصورنا انسانا اجريت له عملية جراحية لاستئصال عضو فاسد فيه ثم استمررنا نجرى له عمليات فى نفس الموضع لم يكن من حقنا أن نسمى هذه

العملية الاولى بالعملية الناجحة ولا العمليـــات التى تليها •

كذلك الثورة الناجحة هى الثورة التى تستأصـــل الداء ، فان طالت معالجته ، وهو ما يحدث دائما لم يجز أن نسمي هذه المعالجة بالثورة الدائمة لان الاحرار لا يثورون الا ضد الظلم فاذا آلت اليهم مقاليد الامور ، فضد من يثورون وهم أصحاب الســلطة الشرعية وكلمتهم أصبحت قانونا • صحيح أن خصوم الثورة لا ييئســون من مهاجمتها ، ولـكن اليقظة الدائمة ضــد خصوم الثورة ليست ثورة • هي يقظة ، هى جهاد مستمر ، هى روح مقاتلة ، لا تقبل انصاف الحلول ، ولا اشبـاهها وتكره المهادنة ، وترفض خداع النفس ، ولـكنها ليست ثورة ، فالثورة لا تكون الا من جماعة ينكر القانون أو المجتمع انها شرعية •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الجهاد ماض حتى يوم القيامة » وهـــذا هو التعبير الصحيح والسليم لما يسميه البعض ، خطأ « بالثورة الدائمة » ولسنا ندقق فى الالفاظ ونحقق ، الا لاننا نعتقــد أن اللفظ الواضح هو ثمرة الفكر الواضح ، والفكر الواضح لا يلد الا الفاظا واضحة ، فليست الالفاظ مجرد حروف تجتمع وتقترن ، بل انها معان وعقائد ••

الشذوذ الجنسي والموت الهني

من الامثال الذائعة عن مجلس العموم البريطـانى انه يستطيع أن يفعل فى بريطانيا كل شيء ، الا أن يحـــول الرجل الى امرأة أو يحول المرأة الى رجل • والقصد من هذا المثل ، أن مجلس العموم البريطانى يملك من السلطات فى بلاده أقصى ما تملكه سلطة فهو يكاد يحمى من الانظمة والقواعد والضوابط ما يشاء ويميت منها ما يريد لا مرد لكلمته ولا حد لسلطانه •

وقد ساق هذا المجلس أدلة على هذه السلطة الواســعة فى الشهور الاخيرة ، فقد تصدى لمشكلة لم تجر العادة ، على أن تكون ضمن ما يناقشه المشرعون وواضعو القوانين ، الا وهى مشكلة الشذوذ الجنسى فقد كان المعروف أن القوانين تصدر لتحارب الرذائل ، وتعاقب مرتكبيها ولم يصدر من قبل قانون ينظم ممارسة رذيلة خصوصا اذا كانت هذه الرذيلة مما لا يتحدث عنها الناس الا رمزاً • فالبغـــــاء والزنا والرقيق ، كلها رذائل ولكنها من رذائل الطبيعــة الانسانية التى توارثتها الاجيال وتساهلت فى شأنهـــــا حينا وتشددت حينا آخر • أما الشذوذ الجنسى فلم يرد فى قوانين الامم البائدة ولا المعاصرة شيء يتصل به •

ولكن مجلس العموم اعتمادا على واسع سلطته ، وادلالا بعظيم مقامه ، تناول الشذوذ الجنسى بالمناقشة العلنيـــة

فسمع الناس القريبون والبعيدون ما دار فى مناقشته والمجلس لا يهتم قليلا أو كثيرا بحمرة الخجل التى اكتست بها بعض الوجوه وعلامات الاحتجاج التى نطقت بها بعض الالسنة وصيحات الاستنكار التى تفجرت على بعض المنابر، فقد هز المجلس رأسه لكل هذا وهو يقول : لا حياء فى الدين ولا نفع فى المكابرة ‥ فالظاهر أن الشذوذ الجنسى مرض من أمراض المجتمع الحديث ، وقد تورط فيه الكبار أصحاب المناصب تورط الصغار المجهولين واعترف بمقارفته ذوو العقول والاقلام ، فكتبوا فى اعترافاتهم التى يقرؤها الالوف أو الوف الالوف فى بعض الاحيان ٠

وانتهى المجلس لا الى اباحة الشذوذ الجنسى ولكن الى تحديد منطقة اباحته فاشترط ألا يتم علنا وأن يتم بالرضاء دون الاكراه ولا يقع على قاصر ٠ ثم انتقل المجلس بعد ذلك الى موضوع خطير آخر ، لا يقل خطرا عن آفة الشذوذ الجنسى ولكنه كان هذه المرة موضوعا انسانيا ، لايبعد أن يكون قد ساور الكثيرين جدا منا ٠ ونعنى به موضوع (قتل المريض الميئوس من شفائه)

هل يجوز للطبيب الذى يعلم يقينا وبلا أدنى شبهة من شبهات الشك أن مريضه لا أمل فى شفائه ان يقدم على قتله اذا طلب منه أهل المريض ذلك ٠

ومبرر هذا التساؤل أن بعض المرضى فى حالات غير قليلة ثبت الا حيلة للطبيب ولا للطب فى علاج حالاتهم ٠ فهم ميتون لا محالة ، ولكن بعد عذاب مستطير والام هائلة لا سبيل الى تخفيفها أو ازالتها فهل يجوز أن يترك هذا المسكين التعس ، يتلظى فى نار آلام مرضه ، والجميع يشاهدون ويتألمون ولا يعملون شيئا ٠

ثم ما هو نفع الابقاء عليه والامل مفقود ؟‥

أم من حقنا أن نهيىء له الموت الذى يسمونه « الموت الهنىء »

فقد تقدم للمجلس مشروع قانون يسمح بقتل المريض الذى تبلغ حالته هذا الحد من السوء وانقطاع الامل اذا وافق ثلاثة من الاطباء ، أحدهم طبيب عام على انعـــدام الرجاء فى الشفاء ـ على ألا يتم انقاذ حكم الموت الا بعد شهو الرجاء فى الشفاء ـ على ألا يتم تنفيذ حكم الموت الا بعد شهر من قرار الاطباء ، وقد اعترض المشرع على هـــذا بثلاث حجج :

الاولى : ان الاديان كلها تحرم ازهاق الروح الانسانية باعتبار هذه الروح وديعة من الله عند عباده يستردها سبحانه عندما يريد ولا يجوز لبشر أن يعطل أرادة الله أو يسبقها فهو وحده الذى يحيى ويميت ٠

الثانية : ان كثير من المرضى الذين يئس الاطبـــاء من شفائهم يفاجأ الاطباء بما يشبه المعجزات فى تخلصهم من المرض ، فكم من عاجز عن الحـركة فقد الامـــل فى استطاعة وقوفه وقف ، وكم من مريض فقد نور عيونه ، وأعلن الاطباء أنه سيبقى فى ظلام العمى ، ثم أبصر ٠

الثالثة : ان الطب تقدم فى تخفيف الآلام الى الحد الذى لم يعد معه التأثر لآلام المريض مبررا للاسراع بقتل المريض ٠

فماذا ترى أنت فى الاعتراض على هذا الرأى ؟ ٠٠

الناس عند "أبي سمبل"

لم يكن أحد أسعد منى ، وأنا اقرأ وصفه الاحتفال ، باتمام العمل فى رفع معبد (أبو سمبل) وانقاذه من مياه السد العالى .

ولقد كنت بادىء ذى بدء ، مطمئنا الى أن مياه النيل ، لم تكن لتقبل ، أن تطمر أثرا من أجمل آثار أبناء النيل ، وتخفيــــه عن الاعين والى الابد ، ثم تذهب ، فى تحليله وتفكيكه ، واحالته الى عدم .

النيل ، وابن النيل من القديم ، توأمان ، متلازمان يكمل احدهما الاخر ، فقد كان النيل مصدر حياة ، ومعبودا ، وخطرا لطيفـــا ، يدعو الى التفكير ، والى التنظيم ، والى التعاون ، والى الوحدة ، ولا يدعو الى شىء كريه مطلقا .

ومثل هذا الزميل الرقيق ، لا يمكن أن يفقد رقتـــه ووداعته ، ويطوى فى أعماقه تحفة من أجمل ما صنع الانسان لا تدل على قدرة الفنان وحده ، بل وعلى قدرة المهندس ، والمنظم ، والحاكم أيضا ، فلم يكن فى وسع الفنان وحده ، أن يبدع هذه التحفة الرائعة ، بغير قدرة دولة هائلة ، يبعد مركزها عن موضع المعبد الاف الكيلومترات ، ومع ذلك ، تستطيع أن تمد الفنان بكل ما يلزمه من أدوات ، وأيد عاملة ، ورؤساء عمال ، وأموال ، ووسائل نقل ، ووسائل مواصلات .

فهذا العمل الرائع ، هو شهادة للمصرى القديم ، بأكثر من موهبة ، والمصرى القديم ، هو من صنع النيل .

ولذلك كان الاحتفال برفع معبد (أبو سمبل) عن مستوى مياه السد العالى ، اعلانا عن بقاء الاخوة بين النيل ، وأبناء النيل ، وحضارتهم ، وثقافتهم ، وفنهم ، ومجدهم الادارى ، وعبقريتهم السياسية .

ولكن كان فى الاحتفال معان أخرى كثيرة .

فانه يشعر العالم كله ، بأن هذا المعبد ، هو ملك الانسانية كلها وأن صنعه المصريون ، فهو اقرار جديد ، بسمو الحضارة المصرية ، وبأنها عند كل الذين يعرفون قدر الانسان ومكانه ـ قمة من القمم التى صعد اليها ، هذا الانسان ، بعد سير طويل ، شاق ، فى صحراء مجدبة ، وصخور تدمى الاقدام ، وقفر لا ماء فيه ، ولا شجر ، وأوحال ومستنقعات ، يكمن الموت فى كل ناحية منها .

والمعنى الثالث ، هذا الوئام الروحى ، والائتلاف الوجدانى الذى أوحى به معبد (أبو سمبل) فقرىء القرآن ، ووجد الاب المسيحى فبدت فكرة الاله ، وفكرة الدين ، فى أنقى صورها ، وأبهى حللها .

هذا الاله الشامل الكامل ، الذى يحتضن أهل المشارق وأهل المغارب ، أبناء عيسى ومحمد ، والذى بدأ فى المعبد ، وانتهى الى الكنيسة والمسجد ، يبعث فى النفوس ، حب الحياة ، وحب الانسان ، وحب العمل ، وحب كل ما هو جميل ورقيق وعذب .

ولكن لا أكتمك أنى لم أستطع ، أن أخفى عجبى من كل ما جرى فى هذا المهرجان الانسانى الجميل ، فالانسان الذى يبدى ألمه ، لتصدع معبد ، أو لاختفاء أثر فنى صغير ، والذى ينفق الملايين للابقاء على لوحته فى جدار متهدم ، او

يعيد بناء صورة يكاد القدم يخفي معالمها ، هو نفســــه الانسان الذى يصب الحمم ، ويقذف بالمتفجرات والمدمرات ، على المدن ، فيهلك الالوف من أبناء البشر ، في لحظات ، ويفني في الوقت نفسه مالا يقدر بمال من آثار الفن العظيم ، من لوحات ، وجدران ، ونوافير ، وصـــور ، وكتب ، ومكتبات ، ووثائق .

ايكون هذا الانسان المدمر المخرب ، المجنون العاصف ، هو غير هذا الانسان الذى يبكى أمر البكاء على سطر في صفحة من كتاب ، أو خط فني لوحة على جدار ؟ .. ايكون هؤلاء الذين يصنعون المتفجرات والمحرقات ، أناسا لايمتون بصلة الى هؤلاء الذين يعشقون ريشة الفنان وقلم الكاتب ، وصوت المغنى ، وحساب العالم ؟

ايكون الناس الذين ينفقون ألوف الجنيهات بحثا عن قارب ضل صاحبه في المحيط ، أو عن فرد ، اختفى في رحلة في الصحراء ، عن اخوانه ورفاقه غير هؤلاء الناس الذين يغرقون السفن الضخمة ، ويحرقون المدن العظيمة - فان هذا الانسان الواحد ، هو بلا شك أخ أو ابن أو أب أو جار لهؤلاء الالوف الذين يقتلون ويجزرون بـــلا حساب - فكيف غلا ثمنه هو ، ورخصت أعمارهم هم ؟

الم تدع هذه الظواهر التى لا تفسر ، وهذه الغرائب التى لا تفهم ، العلماء الى أن يدركوا أن طرق تحضــر الانسان ومدنيته التى اتبعت حتى الآن ، غير منتجة ، وأن يدرسوا الانسان طبيا ومعمليا ، فقد تكون به غدة مجهولة لم تكشف حتى اليوم ، اذا عرفنا كيف تعمل ، وضبطنا سيرها ، وتحكمنا في افرازها ، جنبنا الانسان هذا الجنون المفاجيء ، الذى يستولى عليه بـــلا تمهيد ، فيروح يحطم

ويدمر ، وكأنه يسمع قصيدة عصماء ، أو يشهد منظرا يخلب اللب •

ومن يدرى ، فلعلنا ، لو اتجهنا هذا الاتجاه ، نفضنا أيدينا من هذا العبث المخزى ، عبث مفاوضات نزع السلاح ، ومنع التجارب الذرية ، ومنع انتشار الاسلحة النـــووية حققنا خيرا أكثر فان هذه المحاولات جميعا مع احترامنا ، لغايتها من حيث المبدأ ـ الا أنها لا تورث الا الصداع ، ولا تبعث فى النفس الا الشعور بأنها من قبيل لعب الآباء مع الابناء ، يصرفون نظرهم بشىء لا وجود له ، عن شىء واضح ضخم ، لا تخطؤه العين فالحديث عن نزع السلاح والسلام يدور وتدور معه ، حروب ، وتحضير للحروب •

المتسول المليونير

ان الشحاذ المليونير الذى اعنيه ، ليس هو بطل احدى الاساطير التى تتوارثها الاجيال جيلا بعد جيل ، وليس هو بطل ما نرويه للأطفال من حكايات قبل أن يعقد النوم اجفانهم بل هو حقيقة حية لا تزال تعيش فى بريطانيا فى شخص الشحاذ « دون باتريدج » .

و « دون باتريدج » هذا هو موسيقى متجول يكسب من الغناء فى الطرقات والازقة ، حاملا على ظهره طبلة وفى كتفه « ترمبيطة » وفى يده قيثارة . ولكنه على الرغم من كونه متسولا فهو فنان يحسن العزف والغناء ويستهوى بصوته الاسماع ، ويشنف بموسيقاه الاذان وقد بدأت اغانيه تعرف وتتناقلها الافواه حتى بلغت واحدة من تلك الاغانى المرتبة العاشرة بين احسن اغانى بريطانيا .

ولكن هذا الفنان الموهوب لم يقتنع بموهبته الفنية اذ أضاف اليها موهبة اجتماعية واصلاحية ، فكون من زملائه ، فنانى الشوارع والازقة رابطة ، ثم استطاع أن يحصل من السلطات على اذن أتاح له أن يقيم حفلة غناء وموسيقى لفنانى الرابطة فى اكبر واشهر قاعة موسيقية فى لندن وهى قاعة « البرت هول » وفى هذه القاعة وقف الالوف صفوفا ليستطيعوا الحصول

على التذكرة تهيىء لهم مقعدا من بين المقاعد التى تبلغ عدتها ثلاثة آلاف واربعمائة مقعد • وفى الميعاد المخصص للحفلة امتلأت القاعة بالسامعين وقد جلسوا فى ادب ، ينصتون لموسيقى وغناء الشـــوارع لا ينبثون بكلمة ، كعادة محبى الموسيقى فى الغـــرب ، حتى اذا انتهى الفنان او الفنانون من الاغنية او القطعة الموسيقية دوت القاعة بالتصـــفيق والهب الســـامعون اكفهم اعجابا واستحسانا •

ولـكن هذا الفنان المتسول حقق قبل نجاح رابطة الموسيقيين المتسولين فى حفلة « البرت هول » نجـــاحا عظيما لنفسه فقد بلغ دخله فى الاسبوع الواحد مائة جنيه ثم وصل هذا الدخل الى ١٥٠٠ جنيه فى الشهر ، ولم يكد ينتهى من الحفلة العظيمة حتى تلقى من الولايات المتحدة دعوة للسفر اليها واقامة حفلات بها مقـــابل مبلغ ضخم ، سينقل الموســــــيقى المتســـول الى قائمة اصحاب الالوف ، ولن يلبث حسب المالوف فى الغـــرب ان يحتل مكانه بين اصحاب الملايين فيصبح بذلك أول متسول مليونير فى العالم وصل عن طريق الاغنيـــة فى الزقاق والحارة الى الشهرة القومية ثم الى الشـــهرة العالمية •

ولـكن الذى نتوق الى معرفته هل سيخلع الموسيقى المتجول أو المليونير المتســـول مرقعته التى كانت السبب فى الشهرة والمال ، أم انه سيحتفظ بها ثم ســـيدور وعلى كتفه وتحت ابطه وفى يده الالات الموسيقية يغنى ويعزف ويلتقط فى قبعته القطع الفضيـــة والبرونزية التى يجود بها السامعون ، أم انه سيهجر هـــذا كله وسيختار لنفسه فيللا انيقة ويشترى سيارة فاخرة ،

ويفتح حسابا فى مصرف من المصارف أو فى أكثر من مصرف ويصبح فنانا لا يغنى الا للطبقة الراقية فى المسارح الغالية ، ثم تتخاطفه شركات السينما والتليفزيون والاذاعة ؟! ..

ولو فرضنا انه سيحتفظ بثوبه القديم وقبعته العالية وأدوات الموسيقى التى صاحبته فى ايام الفقر والفاقة ، هل سيحتفظ صوته بعد أن امتلأ جيبه بالمال وذاع اسمه فى الصحف والاندية بجماله القديم وشجوه المؤثر ، وشدوه الذى يلمس أوتار القلوب ، أم ان المال سينزع العاطفة وسيصبح صوته نحاسيا ، واداؤه مصطنعا تنقصه حرارة الفنان الفقير ؟

كلنا متسولون وعلى باب الله

من أطرف الاخبار التي سمعتها ، أن مؤسسة أنشئت حديثا في بريطانيا ، لتقدم للناس أغرب خدمة ، وان كانت خدمة يحتاج الناس اليها حقا ، ولكن قل من يجد الشجاعة عنده ليعترف بحاجته اليهـــا • تلك هي (العطف) • فالناس في حاجة الى طعام ياكلونه والى مسكن يأوون اليه ، والى ملبس يغطون به أجسادهم ، ولكنهم في اخر الامر في حاجة الى الشعور بأنهم مطلوبون ، وليسوا زائدين عن الحاجة ، ومحبوبون ، وليسوا ثقلاء يعيشون ولا أصدقاء لهم • ولكن ليس في مقدور الانسان ، أن يجد هؤلاء الذين يمدونه بالعطف ، ويزودونه بالرفق ، ويشعرونه بأن له من يفكر فيه ، ويهتم به ، فكيف يوفر لنفسه هذه الحاجة الضرورية التي لا تقل أهمية عن الطعام والمسكن والثياب والزواج ؟ فالانسان يتقدم به العمر ، فيفقد أقرباءه ، أو قدر تباعد الاقدار بينه وبين الاقارب ، فيكون الرجل في قارة ، وأحد أولاده في قارة أخرى ، واحدى بناته في قارة ثالثة ، فتنطبق عليه الوحدة ، كطوق من حديد ، يوضع حول عنقه ، ثم لا يلبث أن يضيق بنفسه شيئا فشيئا ، فماذا يفعل ، وأين يجد حاجته من العطف ، وكيف يؤنس وحشته بسؤال صديق ، عن الصحة والمزاج ؟

لقد اهتدى انسان ذكي الى هذه الحاجة الانسانية التي يتزايد عدد الذين يفتقدونها ، ففي المجتمع الحديث يعيش

الناس ، فى شقق ، كما يعيش السردين الميت فى أحقاق من صفيح ، محكمة الغلق • فكل انسان فى شقة ، لايعرف اسم جاره ، ولا يفكر فى معرفته ، ولا يدرى من أخباره شيئا ، وقد يكون جار الواحد منا مريضا ، يتعذب ، أو خائفا من خطر حقيقى أو من وهم ، وهو لا يفصله عن جاره الا حائط رقيــق ومع ذلك ، هو يحس بأنه يعيش فى صحراء فسيحة ، ان صرخ لم يسمعه أحد ، وان أدار بصره لم يقع على آدمى اخر •

والفكرة الذكية التى اهتدى اليها الانســان الذكى ، لا تزيد عن جهاز تليفون يجلس وراءه ، رجل أو امرأة ، لهما صوت مؤنس ، ونبرة لطيفـــة ، وبراعة فى الكلام البسيط القليل الموجز • ومهمة الرجل أو المرأة ، أن يدير قرص التليفون مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم ، ليسأل عن صحة ومزاج المشترك فى هذه المؤسسة ، مؤسسة « نحن نقدم لك العطف » • ولا يدرى الا المحرومون ، قيمة هذا التليفون الذى يجلجل جرسه ، فى شقة هادئة ساكنة ، ليس فيها الا ساكن أو ساكنة ، منقطعان عن العالم كله •

وليس المشتركون فى هذه المؤسسة هم وحدهم الذين يحتاجون الى رنة هذا التليفون ، فكل منا فى واقع الامر ، يحتاج الى الشعور بالعطف ويفرح بالسؤال عنه ، ولو تأفف بعضنا من كثرة السؤال ، وهرب من الناس •

فالمؤلف الكبير ، والمطرب المشهور ، والممثــل الذائع الصيت ، والفنان العالمى ، والزعيم الذى تحتشد لهالالوف كلما راح أو غدا ، فى حاجة الى العطف والسؤال ، لان هؤلاء يعانون المشقات ، ويكلفون أنفسهم فوق ما يطيقون ليبقى اسمهم مذكورا ، وصورتهم معروفة ، وشهرتهم واسعة ، وقد يخيل الينا أن هؤلاء المشاهير ، يضيقون بالشهرة ، أو يشبعون منها ، والواقع أنهم يتأففون من الناس ، ولكنهم

لا يزهدون فى الشهرة ، والا لما قالوا ، أو فعلوا ما يطلبه الناس • فالكبار يحسبون حساب الناس ، وحســـاب كلامهم ، أكثر مما يحسب هذا الحساب ، المجهولون الذين يقنعون بدنياهم الصغيرة •

وقد ينشر عن الشاعر العظيم الكتب الضخمة : تحلل شعره ، وتؤرخ لحياته ، وتضع على رأسه أكاليل الغار ، ثم ينشر عن هذا الشاعر العظيم سطر فى صحيفة ـ غير مقروءة ـ فيه نقد ، فيسمم حياة الشاعر ، ويفسد مزاجه • ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يلتمسون المدح بكل ثمن ، ويتقون النقد بكل وسيلة ، شاعرنا العظيم أحمد شوقى • وقد عرف هذا الضعف فيه بعض أصحاب المجلات التى لا تبيع من أعدادها شيئا ، فكانوا كلما احتاجوا الى مال يغمزونه بكلمة ، فيتظاهر بعدم الاكتراث ، أمام أصدقائه ، ثم يبحث عن أصحاب هذه الصحف المجهولة فيجزل لهم العطاء سرا •

ولست انسى سطرا كتبه زكى مبارك ، فى مقاله الذى كان ينشره فى البلاغ ، فيثرثر فيه ، وينتقل من شىء الى شىء ، بلا نظام ولا ضابط • فقد قال يوما ان التليفون دق فى شقته ، فأبهجه صوت التليفون • فقد أدركت أن هذا السطر هو من أصدق ما كتبه زكى مبارك •

فليس اذن الذين اشــــتركوا فى مؤسسة العطف ،هم وحدهم الذين يلتمسون هذا العطف ، ويشترونه بالثمن ، وانما كل الناس ، تبحث عنه ، وتدفع فى سبيله ثمنـــا عاليا ، ولكن أكثرنا يتظاهر بالاستخفاف ، ويدعى أنه لا يريد من الناس الا أن يتركوه •

ولكن هؤلاء كاذبون ، فالناس تتسول العطف وتستجديه كل بأسلوبه ، ولكنهم جميعا على باب الله •

الحرية هى الخلق

قرات فى كتاب الشاعر الباكستانى محمد اقبال كلمة اثارت فى نفسى خواطر شتى ممتعـــة ولذيذة تتعاقب تعاقب الحلقات فى سلسلة من ذهب .

قال الشاعر المسلم ان الخلق أو القدرة على الخلق والابتكار ليست ســوى الحرية بمعنى آخر ، فالذى يخلق يجب ان ياتى بجديد لم يكن موجودا من قبل ، فمن ينقل عن سواه أو يكرر فعل غيره ، أو يردد قوله لا يكون خالقا لانه قدم لنا شيئا موجودا بالفعل . اما من يلد مخلوقا لم يره الناس من قبل ، فهذا هو الخالق فاذا كانت قدرته على الاتيان بالجديد محدودة ، زالت عنه صفة الخالق . فاذا زالت العوائق والموانع التى تحد القدرة على الخلق ، فان معنى ذلك أن الحرية تحققت ، واذا تحققت الحرية أمكن الخلق . ولهذا فان الله الذى خلق كل شيء هو الفعال لما يريد ولو لم يكن فعالا لمـــا يريد ، لما كان أعظم الخالقين . ومن هنا يقول الناس : أن الـكتاب والقراء والفنانين وكل أهل الفكر والعاملين فى ميدان العقل يحتاجون الى الحرية ليبـدعوا أشياء جميلة تبقى بعدهم وتمتع النـــاس على توالى الحقب والاجيال . ذلك لان القيود المفروضة على هؤلاء والتى تحد من حريتهم تحد فى الوقت نفسه من قدرتهم على

الخلق ، لهم لا ينطلقون مع ماتوحى به اليهم عقولهم ، ونفوسهم ، بل يتحرون الارادة الخارجية التى تضغط عليهم وتحدد لهم نطاق العمل أو الفكر . وهذا الضغط لتتفاوت اثاره ، فتارة يحطم ارادة الخلق والابتكار عند الكاتب والفنان ، فيصيبه العقم تماما وتارة تخرج مخلوقاته مشوهة بتراء تتحاشاها الانظار وتشمئز منها النفوس ، وقد تخرج سليمة كاملة فى الظاهر ناقصة الروح فى الواقع ، فالشاعر أو الكاتب الذى لا يقول كل ما يريد أو الذى يقوله بغير الاسلوب الذى يرتاح اليه ويطمئن ، يخرج عمله كاملا فى المظهر ناقصا فى الجوهر .

ولكن ليس معنى هذا ان على أهل الفكر ان يطلبوا الحرية وأن يخلدوا الى مضاجعهم فى البيوت ، وأن يسألوا بين الحين والحين ، هل وافت الحرية ؟.. فاذا قيل لهم لم تأت بعد ، غطوا فى نومهم ثم أستيقظوا وعادوا يسألون : هل جاءت الحرية ؟ .. فان تكرر الجواب ، استأنفوا نومهم اللذيذ وازدادوا تشبثا بالمخادع الوثيرة ، فانه اذا كانت الحرية هى ضمان الخلق أو هى الخلق ذاته فانها ثمرة عجيبة قل أن توجد فى الاشجار القصيرة التى تطولها أيدى الاقزام وهم سائرون فى الطريق يقطفون منها ما يشاءون ، فيأكلون ويتلمظون فهى ثمرة فى شجرة عالية لا يصل اليها الانسان الا اذا تسلق اليها جذعا طويلا مليئا بالاشواك . أو اذا طالت قامته حتى كاد يكون عملاقا .

فاذا كان الخلق هو الحرية فان الذين يبتكرون ويضيفون الى الحياة أشياء جميلة ورائعة يبدأون بخلق حريتهم وحرية المجتمع الذى يعيشون فيه . فالحرية

التي هي ضمان الخلق هي أول ما يبدأ به الخالقون خلقهم ، والمبتكرون ابتكارهم ، والمبدعون ابداعهم .. فكما تستعصي قطع الصخر على ازميل النحات ، تستعصي الفكرة على الشاعر والكاتب ، كذلك تستعصي الحرية على طالبيها والخاطبين لودها ، فان لم يمهروها بالعرق المتصبب من الحياة وأحيانا بالدم المتدفق من العروق لم تلب دعوتهم ، ولم تستجب لندائهم ، فالخالقون المبتكرون هم الاحرار ، لان أول مبتكراتهم وبدائع آثارهم هي الحرية ذاتها .. فما من عمل ادبي او فكري أو فني جميل ، الا ويوحي بحب الحرية ، وما تحققت الحرية الا وأوحت بالميل الى الابتكار والخلق، وهكذا تجري الحياة في دائرة مفرغة لا تعرف اين تبدأ ولا أين تنتهي .

العقول المعارة

كان الانسان ـ حتى الآن ـ يستطيع ان يستعير او يعير لغيره ماله أو مقتنياته الادبية والفنية ، ككتاب أو صورة او آلة موسيقية ، وكان يستطيع ان يضع فى خدمة غيره من بنى الانسان علمه أو خبرته فى شكل نصيحة أو اشراف أو تقرير ، ولكن لم يكن فى وسع الانسان ان يعير الى آخر عقله ، والتجربة التى اختزنها هذا العقل . غير انه يبدو اننا على أبواب عهد سيمكننا نحن أبناء آدم أن نستعير عقول الآخرين ، وأن نعيرهم عقولنا بكل ما فيها من خبرات وتجارب . فلقد أجرى طبيب أمريكي تجربة على الفئران وخلاصة هذه التجربة انه درب فريقا من الفئران على الخوف من الظلام ، وفريقا آخر من الفئران أيضا على الخوف من السلالم ثم امتص سائل المخ من الفريق الاول فحقن به الفريق الثاني كما امتص سائل المخ من الفريق الثانى ، وحقن به الفريق الأول ، فاذا بالفئران جميعا أصبحوا يخافون الظلام والسلالم مع ان كلا من الفريقين قبل التدريب لم يكن يخاف لا من الظلام ولا من السلالم . وبعد التدريب خاف كل منها شيئا واحدا فقط . فلما تم هذا الحقن على هذه الصورة كانت النتيجة خوف الجميع من هذين الامرين معا وليس لهذا الا معنى

واحد هو ان امتصاص السائل من مخ حيوان ما ، وحقن مخ حيوان آخر به ، هو بمثابة نقل التجربة والعلم التى حصلها المخ الاول الى المخ الثانى .

ولو ثبتت نتائج هذه التجربة الاولى على تجارب تجرى على نطاق أوسع ، ولمدى أبعد ، وفى حالات اكثر تعقيدا ، ثم لو ثبت أن ما يحصله العقل الاقل تجربة من العقل الأكثر تجربة سيبقى ولن يزول زوال الكتابة التى نكتبها على سبورة بالطباشير ، أو على لوح من الاردواز ، فان معنى ذلك ان باب التقدم الانسانى سيفتح لا على المصاريع فحسب ، بل سيصبح كالبحر متاحا للجميع أن يغترفوا منه دون حد ولا رقابة ولا وصاية .

فلو تصورنا أمة من الامم التى حكم عليها الاستعمار بالتخلف والجمود والجهل ، استطاعت ان تحقن عقول بعض النابهين من أبنائها بسائل المخ المأخوذ من عقول عدد من كبار الرياضيين وعلماء الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والهندسة وتحقق عددا آخر من عقول الفنانين التعبيريين كالممثلين والموسيقيين والمغنين ، لاستطاعت فى فترة وجيزة أن توفر لها خميرة صالحة لنهضة سريعة فى بلادها .

ولو استرسلنا مع الاحلام — وهى أحلام لن يطول الامد حتى تتحقق كما تساورنا الآن أو كما يطورها العلم والتجربة — لجاز لنا أن نقول ان الانسانية ستوفر جهدا كبيرا فى تعليم أولادها ونشر الثقافة فى ربوع هذا الكوكب الذى نعيش فيه ، اذ ليس ضروريا — مع امكان نقل العلم والتجربة من عقل الى عقل بمجرد الحقن — أن تتعلم الامم نفس العلوم ، بل يحسن يومذاك ان تتخصص

كل امة فى علوم وفنون يثبت تفوق أبنائها فيها لتدع لغيرها من الامم ما يبرع فيه أبناؤها ، ثم يحدث التبادل بين هذه الامم المتخصصة ، فكما تتخصص بلاد فى انتاج القطن الممتاز ذى التيلة الطويلة .. وبلاد فى انتاج الارز ، واقطار فى انتاج قصب السكر ، تتخصص أمم فى فرع من فروع الهندسة ، وأمم فى فرع من فروع القانون ، وشعوب فى شىء من الطب ، وهكذا ثم تجرى عملية الحقن .

ولا يحسبن القارىء الكريم ان هذا الذى نقوله هو هذر لا يستحق الاستماع اليه ، او الاهتمام به ، فاحلام الادباء ، وتأملات الفلاسفة ، وتمنيات الافراد العاديين تحولت مع الزمن الى حقائق . ولكن يقوم الى جانب حق الانسان الشرعى فى أن يحلم ، واجب عليه هو أن يعرف انه لن يأتى اليوم الذى يكون فيه تحصيل العلم او الثقافة بغير جهد مهما سهلت الادوات ويسر التقدم الفنى على الباحثين سبل الدراسة والتحصيل فعلماء اليوم — مع الاجهزة الفنية التى لم تكن تخطر على بال — لا يزالون يبذلون العرق ، واحيانا الدموع ليحققوا التقدم المرجو ، فالعلم والمعرفة والجهد والاحتمال ، اشقاء لا ينفصلون وزملاء لا يترك أحدهم صاحبه أبدا .

أجزاخانة الأزهر

مررت وصديق من اصدقائى « باجزاخانة الازهر » فارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال : « ما أشبه الكثيرين من مؤسساتنا الثقافية والفنية بهذه الصيدلية » ولم افهم ما قال ، ولكنه استرسل فى كلامه : « لو مر اجنبى بهذه الصيدلية ، قام فى وهمه انها تصنع دواء من وضع علماء الازهر ، وفقوا اليه بفضل كتب كتبها زملاؤهم أو كتبها أساتذتهم تطبيقا لطب ازهرى وضع المسلمون والعرب أساسه ، ثم اضاف اليه المحدثون من أبنائهم وأبناء الامم الاخرى اشياء وأشياء » ، والحقيقة أبعد الامور عن هذا الذى نتصوره او الذى كان يجب أن يكون ، ولعل اجزاخانة الازهر مثل « بار اللواء » فقد اتخذ صاحبه من اسم صحيفة مصطفى كامل الوطنية عنوانا له ، وما أبعد الصحيفة عن البار . وصيدلية الازهر تعد دواء من تذاكر كتبت باللغة اللاتينية لأدوية اسمها لاتينى ، وبناء على طب وضع اصوله وألفت كتبه وشرح متنه علماء من امريكا وأوربا ليس فيهم واحد يعرف العربية او يؤمن بالاسلام .

وذكرتنى هذه الملاحظة بما رددناه حينما صحت النية على تطوير الازهر ، فقد كنا نطمع فى ان يكون

الجامع « لا الجامعة » معهدا يواجه متطلبات الحياة العصرية النظرية والتطبيقية ، ولكن على أسسه القديمة وعلى يد علماء وتلاميذ نشأوا فى أحضانه وتتلمذوا عليه واصبحوا جزءاً منه يفهمون ما يجرى فى دنياهم ، ويتحدثون بلغة أيامهم ، ولكن دون أن تنفصم صلتهم بأصولهم ، فهم كالابن والحفيد من الاب أو الجد .. الابن يلبس زى عصره ، ويتكلم لغة عهده ، ويفكر فيما يجرى فى عالمه ، ولكنه ابن هذا الاب وحفيد هذا الجد « يشبهه ويجرى دمه فى عروقه » .

واذكر اننا حينما كنا نناقش تطوير الازهر ، قال لى شاب ، هو منى بمثابة الابن : « ألم تر الى الراهب المسيحى يضع فوق مسوحه معطف الجراح ، ويجرى بيده العملية الجراحية ، وهو راهب ، انقطع لعلم اللاهوت ، ونذر نفسه لدينه » فقلت له : « هذا بالضبط ما نريده . الجوهر الباقى هو الراهب والمظهر المتغير هو معطف الطبيب ، نريد أزهريين تعلموا فى الازهر ما يتعلمه التلميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية والمصرية وخرج منها يعرف الطبيعة والكيمياء والتاريخ والجبر والرسم والهندسة ، وحفظ معها القرآن باجزائه الثلاثين ، وعرف مبادىء الشريعة والفقه والحديث وقدرا عظيما من قواعد اللغة ونحوها وصرفها وبيانها وبديعها .

ثم يدخل الى الدراسة العليا فى الجامع الازهر لا « الجامعة الازهرية » فيتخصص فى اللغة العربية ، او فى الشريعة الاسلامية ، أو فى التاريخ الاسلامى ، أو فى أصول الدين والفلسفة الاسلامية ، أو فى الطب أو الهندسة او الزراعة ، ولكن بشرط أن يدرس طالب

الطب الازهري في سني دراسته الجامعية كل ما تركه المسلمون في الطب بفضل ابن سيناء وأشباهه دراسة احاطة وتعمق ، وأن يدرس طالب العلم الازهري كل ما تركه المسلمون في العلوم ، بفضل ابن الهيثم ، والبيروني ، والخوارزمي وأضرابهم ، ويدرس طالب الجغرافيا الازهري كل ما تركه المسعودي واخوانه فاذا خرج هؤلاء الى الدنيا اطباء وعلماء ومدرسين كانوا طرازا يختلف اختلافا جوهريا عن زملائهم الذين تخرجوا في جامعاتنا الحديثة . فالطبيب الازهري ، والمهندس الازهري ، والجيولوجي الأزهري ، والصيدلي الازهري جميعهم حفظوا القرآن ، وعرفوا من الحضارة الاسلامية وفكرها وأدبها وتقاليدها وآثارها ما لايعرفه الطلاب الذين أخذوا العلم في الجامعات العصرية ، ويصبح ما يعمله الازهر جديرا بأن يضيف الى حياتنا وحياة الناس شيئا جديدا .

وكان السبيل الى تحقيق هذه الغاية أن يتم التطابق بين الدراسة الابتدائية والثانوية في الازهر والدراسة الابتدائية والثانوية العادية ، فيما عدا تميز الدراسة الازهرية في هاتين المرحلتين بالمواد الاسلامية ، الأمر الذي يجب أن تطول معه الدراسة الازهرية سنتين أو ثلاث سنوات، على أن يعوض الطالب عنهما آخر الآمر بعلاوة على مرتبه ، ان هو اتم دراسته في الكليات الحديثة .

فاذا اجتمع لدينا عدد كاف من علمائنا الازهريين الذين حصلوا على اجازاتهم النهائية من الجامعات الحديثة في مصر والخارج ، كانوا هم نواة الكليات الحديثة في الازهر ، وكانت هذه الكليات ازهرية بحق ، وكان التطور تطورا بغير شبهة أو جدال .

ان الراهب المسيحي حينما يتناول شيئا من العلم الحديث ، طبا كان او هندسة أو تدريسا أو تأليفا يكون هدفه من هذا أن يخدم عقيدته ، وينشر مذهبه كذلك يجب ان تكون الغاية من تخريج الأطباء والمهندسين والصيادلة وغيرهم من الازهريين أن يتصل العلم الاسلامي بالعلم الحديث ، وأن تساهم الحضارة الاسلامية فى الحضارة العصرية على يد علماء عرفوا آخر ما وصل اليه الانسان فى دروب المعرفة وطرائقها ، مع صلة وثيقة ووطيدة بالثقافة الاسلامية ، صلة علم ودراسة وصلة فهم واحاطة .

اما الكليات التقليدية الازهرية ، فخطرها أكبر مما تتصور ، ورسالتها أعظم مما ندرك .. فان افريقيا وآسيا ، فتحت أبوابها بعد أن سقط الكثير من سلطان الاستعمار وزال الستار الحديدى الذى أبقى هذه الدول فى ظلام ما قبل التاريخ. وهذه الشعوب الصديقة والشقيقة فى حاجة الى من يثقف ، ويعلم ، ويأخذ باليد ، وليس أليق بهذه المهمة من الازهرى الذى نشر أجداده نور الحضارة فى شرق افريقيا وغربها ، وفى جنوب آسيا ، وجنوبها الشرقى ، ولكن لكى يكون هؤلاء جديرين بالعبء الذى سنلقيه على أكتافهم يجب أن ندقق فى اختيار طلاب هذه الكليات الاسلامية :

أصول الدين ، واللغة العربية ، والشريعة والقانون ، فنفتح أبوابها لاصحاء البدن والعقل ، والممتازين فى الدراسة الثانوية ، فان هؤلاء لن يكونوا موظفين عاديين يجلسون وراء المكاتب ، أو يعملون بالاسلوب العادى ، بل سيكونون طلائع دعوة وفكر ، يحتاجون الى ثقافة واسعة ، وارادة نافذة ، وحيوية تصمد للمتاعب وتعلو عليها .

التربية الدينية

لا أذكر اننا تلقينا تربية دينيـــة فى المدارس المصرية الحكومية حينما كنا صبيانا . بل الذى أذكره ان نظام التعليم قام على حرمان التلاميذ من أية تربية دينية ، لان هذا التعليم كان من تصميم ووضع الانجليـــز . والانجليز ، وأمثالهم من الاســـتعماريين يحرصون ـ سياسيا ـ على عدم المساس العلنى بالاحســـاسات الدينية للشعب ، ولـكنهم فى الوقت نفســـه يكرهون اشد الـكره أن يتعلم أبناء الشعوب التى يحكمونها اى شيء صادق وصحيح عن أديانهم ، سواء كان هـــذا الدين اسلاميا أو مسيحيا .

فالمبشرون الذين يدعون انهم ينشرون المسيحيـــة فى البلاد غير المتمدينة فى افريقيا ، والمتخلفة فى آسيا ، والفطرية فى استراليا ، لا ينشرون المسيحية التى جاء بها السيد المسيح ، وانما ينشرون نوعا غريبـــا من المسيحية صنعته الدوائر الاستعمارية ، الغـــاية منـه تعليم أهل البـــلاد الاصليين لغة البلد الغـــازية ، ثم انتزاعهم من البيئة التى يعيشون فيها وينتمون اليها ليكونوا أدوات للاستعمار ، يضربون بها أهلهم ووطنهم ، وقد علمت ان هؤلاء المبشرين فى الصومال كانوا يدخلون اللقطاء الى المسيحية ، وان هؤلاء اللقطاء لم يلبثوا حتى

تركوها ، حينما ترك سادتهم الصومال . فقد كانت مسيحية لخدمة الاستعمار ، لا لخدمة المسيح .

لذلك كله كانت التربية الدينية فى مدارسنا شيئا منبوذا وكريها ، فحصة الدين كانت حصة يتيمة فى الاسبوع ، وكانت توضع فى ذيل اليوم المدرسى ، حتى يشعر التلاميذ بأنها زائدة عن الحاجة ، وكانوا يحشرون فيها تلاميذ فصلين فى حجرة واحدة . على ان المصاب الاكبر كان في مادة هذه الحصة ، فقد كانت هذه التربية الدينية لا تعدو أمرين : حفظ قصار السور ، نتلوها ، وعلى رؤوسنا عصا الاستاذ مشهرة ، تهوى على الاكتاف والاطراف ، لمجرد الخطأ او الشروع فيه ، ولم يكن أحد منا يعرف حرفا واحدا من هذه السور ، فلم يكن فى وسع صبى صغير فى السابعة أو الثامنة أن يعرف ماذا تكون « العاديات » ، ولا ما هو « العهن المنفوش » ولا من هم « المطففون » ، ولم يكلف أحد خاطره ، ليقرب الينا هذه الآيات أو يحببنا فيها ، أو يمد يده نحونا لنتذوقها .

فاذا فرغنا من هذه الآيات ومن الخوف من عصا الاستاذ ، أو من الاصطلاء بنارها فعلا ، بدأنا نتلو فى كتاب اسمه « الديانة والتهذيب » طبع على ورق رخيص مع ان كتب تلك الايام كانت تطبع على ورق مصقول ، وتحلى بصور لا بأس بها . أما هذا الكتاب فكان قاتما خاليا من أية صورة ، كتب بلغة المواعظ المنبرية ، ينهى عن المنكرات التى لا نعرفها ، ويدعونا الى فضائل أكبر من ان نستطيع أن نمارسها .

لذلك خرجنا من الدراسة الابتدائية وليس امامنا مثل اعلى نتطلع اليه ، وقد خلت حياتنا من أى زاد روحى فنتسلح به فى كفاحنا الشخصى أو فى كفاحنا العام .

أما المدارس الثانوية ، فقد اعفت نفسها من هذا العبء الكريه ، فخلت برامجها من التربية الدينية ، مع ان الشباب فى مثل هذه السن احوج ما يكون الى من يناقش معه مشكلات هذه الفترة الحرجة من حياته التى تكثر فيها تساؤلاته ، والتى يتلفت فيها يمينا ويسارا ، باحثا عن شخص أكبر منه سنا ، وأكثر منه تجربة يطمئن اليه ، ويفضى بذات نفسه .

ولست أدرى بالضبط اى جديد طرأ على مركز التربية الدينية فى مناهج تعليم وتنشئة أولادنا . الا تزال فى المركز الوضيع الذى كانت تحتله فى الماضى أم انها تحسنت وتولاها أحد بالعناية والرعاية .

على أية حال انى أرجو أن يفهم ان التربية الدينية هى أولا وقبل كل شىء تربية انسانية ، وان الغاية منها تعزيز خلق الطفل والصبى وتعويده على النظر الى الانسانية والكون العام نظرة فهم وود وتفاؤل وأمل ، فليست التربية الدينية المطلوبة خوضا فى مشكلات العقائد ، ولا اثارة لنوازع العصبية .

ومن هنا فانى أقترح أن تقتصر التربية الدينية للصبيان فى سنى الدراسة الاولى على الاناشيد الجميلة التى يسهل على هؤلاء الصغار التغنى بها ، فتعلمهم مبادىء الغناء ، وتربى ذوقهم الفنى . ويجب أن تقتصر هذه الاناشيد على الفرح بجمال الكون ، والسرور بالنظر الى البحر ، والنهر ، والحقل والزهر والقمر والشجر ، ووصف الطيور والبساتين ، والسماء والسحاب ، وفى هذه المرحلة يجب أن يتلقى الاطفال جميعا هذه الاناشيد فى فصل واحد ، يضم المسلم والمسيحى ، فاذا تقدموا فى السن ، وجب أن توضع فى

أيديهم كتب مطبوعة على أحسن ورق ، مزينة بالصور الملونة ، تروى قصص الانبياء ، وتواضعهم ، وحبهم للفقير ، وعطفهم على الضعيف ، وشجاعتهم وصبرهم .

فاذا تقدموا ، وضعت فى أيديهم كتب حسنة الطبع والتصوير والتلوين ، تروى قصة الرسول عليه السلام وقصصا من حياة الخلفاء ، كقصة عمر بن الخطاب مع المرأة الفقيرة التى كانت لا تجد ما تطعم به أولادها ، وقد اشتد عليهم الجوع ، وعلا بكاؤهم .. وهكذا تتدرج هذه التربية ، حتى تصل الى فلسفة الدين الاسلامى ، وقواعده الكلية ، ونظرته الشاملة للانسانية ، وحرصه على السلام العام ، وآثاره فى الحضارة الحديثة . وفى الفصول العليا يجب أن تشمل الدراسة تطور علاقة العالم الاسلامي بالمجتمع الدولى فى مختلف الحقب ، ودراسة مستقبل الحضارة الاسلامية ، والدور الذى يمكن ان تلعبه فى الازمة العالمية التى نجتازها .

وبالجملة ، يجب أن نغير نظرتنا الى هذه المادة الحيوية ، وان نجعل منها سبيلا الى توسيع نظرة الصبى والشاب المسلم الى العالم ، وأن نؤكد عنده شعوره بأهمية دوره الحضارى والانسانى .

كتاب القرية العظيم

ما أكاد أذكر أو أسمع شيئا عن التربيـــة أو عن التعليم ، أو عن مكافحة الامية ، أو عن تنقيح البرامج أو عن ضيق التلاميذ بفصولهم ، أو ضيق الفصـــول بتلاميذها ، حتى يتداعى لذهنى اســـم « الكتاب » .

« فالـكتاب » هذا المعهد الصغير ، الفقير المتواضـع الذي نسيه الناس ، وجحدوا فضله ، وأنكروا دوره ، وأدار له الزمن ظهره ، هو عندي من أكبر المعـــاهد يدا فى عنق بلادنا ، وأثرا فى تربية أولادنا وتعليمهم ، ومن أبقاها فضلا على رجولة رجالنا ، ونقاء لغتنـــا ، وتقويم ألسنتنا .

« فكتاب » القرية بقى رافعا شعلة التعليم ، مبقيا على جذوة اللغة العربية ، مبددا ظلام الجهل والامية ، فى قرانا المصرية ، لولاه لما خرجت هـــذه الصفوف من الادباء والمفكرين ، والخطباء ، والفنانين ، والفقهاء ، والمربين ، والعلماء ، والصحفيين ، فانك لا تقرأ ترجمـــة حياة عظيم من عظماء الادب أو القانون أو السياسة أو الصحافة فى بلادنا ، الا وتجد فى صدر هذه الترجمة ، انه تلقى العلم فى « الـكتاب » وان « سيدنا » هش عليه « بالمقرعة » . صحيح ان بعض هؤلاء ، فروا من « الـكتاب » ، وقد أرهبتهم « الفلقة » التى كانتا

توضع فيها أقدام الصغار ، توطئــــة لجلدهم ، وان بعضهم رأوا فى شخص « سيدنا » رجلا فظا غليظ القلب يكاد لا يعرف التعليم ، بقدر ما يعرف الصفع والركل والجلد . ولكن بعد خصم كل هؤلاء الافراد من قائمة خريجي « الـكتاب » يبقي جيش عرمرم أتقن القراءة والكتابة ، وحفظ أفراده القرآن كله أو بعضه ، وعرفوا القواعد الحسابية الاربع الاصلية ، من جمع ، وطرح ، وضرب ، وقسمة ، فى « الـكتاب » ثم رأوا ألسنتهم وقد استقامت ، وقدرتهم على القراءة والتحصيـل ، وقد زادت ، وحبهم للمعرفة والتثقيف وقد أقلقتهم ، فدفعت بهم الى الازهر ، ومن الازهر ، عرفوا كيف يؤلفون الـكتب ، ويحررون المقالات ، وكيف يخطبون فيثيرون الجماهير ، ضد الخديو حينا ، وضد الاحتلال حينا آخر ، وضدهما معا حينا ثالثا .

و « للـكتاب » العظيم مزايا يجب أن تذكر وتشكر، فهو أولا متواضع .. يذهب الى التلاميذ ، ولا ينتظر أن يأتوا اليه ، فهو يفتح أبوابه ــ التى لا وجود لها ــ على حصيرة قصيرة ، على شط ترعة أو جدول ، وفى الهواء الطلق ، أو فى حجرة متداعية ، بكوخ مهجور ، يطلق علمه .

ثم هو لا ينتزع أطفــــال القرية من قريتهم ولا من ذويهم . فهم يأتون اليه بملابســـــهم القديمة الممزقة ، ويعودون بها ، وحيثما يأتى موسم عمل أيا كان هذا العمل ، جمع قطن أو مقاومة دودة ، أو حصاد غلة ، يتركون « الـكتاب » بلا استئذان أو مراجعــة ، وبلا اجراءات معقدة ، وأخذ ورد .

وما أيسر ما يدفعه هؤلاء التـــلاميذ الى استاذهم

ومربيهم : شيئا من « البتاو » أو قليلا من الفلة ، أو كعكات أو قطائر ، تصر فى منديل وتسلم « لسيدنا » فيأخذها وهو لا يكف عن هز رأسه ، والتلويح بعصاه .

ثم انظر الى هـذه المزية ، وتأمل فيها ولا تنس ، فالاطفال ـ صبيانا وبنـات ـ يجلسون متجاورين ، قبل أن تبدأ الدراسة المشتركة بسنين

ثم انظر ايضا ، ان التعليم فى هذا « الـكتاب » فى الهواء الطلق على أحدث ما تقضى به أصـول التربية الحديثة ، وسط الحقول ، والمزارع .

ثم لا تنس أن النظريات الحديثة أيضا تنادى بالمدرس الواحد الذى يلقن الاطفال مبادىء العلوم كلها ، فتتوثق الصلة بينه وبين الاطفال ، ولا يكون مدرسا فحسب ، بل وأبا ومرشدا أيضا .

بقى ان أسأل : ما الذى طارد « الـكتاب » وأخرجه من حياتنا ، وأى شكوى لنا ضده ، وأى عيب فى أن نعيده الى سابق عهده ، يعاون المدرسة الحديثة ويأخذ الفائض منها ، ونحسـنه قليلا بحيث لا نخرجه عن جوهره العريق ، ولا من دوره الأصيل .

وهل أخطىء اذا دعوت الى أن تكون عودة «الكتاب» دعوة ورسالة ، واذا رجوت أصحاب الاقلام ، ورجال التربية ، والمشتغلين بالسياسة والشئون الأجتماعية ، وحلالى مشكلاتنا الادبية والروحية أن يتفضلوا بنظرة عطف على « الكتاب » .

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

لعل خير تعريف بهذا الكتاب ،عناوين موضـوعاته وخواطره ، ففى القسم الاول منه ، وهو قسم خواطروافكار حرة فى الدين ، يحدثنا عن خصائص التشريع الاسلامى ، وسماتهالعالمية ، كما يحدثنا عن نظام الحكم فى الاسلام ، وأسس الحريات فيه ،وعن قانون الكسب غير المشروع ، كما طبقه الرسول والخلفاء الراشدون . وبأسلوب سريع وحار ، يعرض علينا معانى جـديدة ، فى الاسراء ودلالاته الانســانية ، ومســتقبل التشريع الاســلامى . أما فى القسم الثـانىفيتنقل بين معان كثيرة ، تبدو بعيدة بعضها عن بعض ولكن المؤلف يجمعبينها فى اطار عام شامل ، فهو ينتقل من الحديث عن الشذوذ الجنسى ، والموت الهنىء ، الىالرءوس الحافية: الى « العقول المعارة » ، الى خواطرمثل « كلنا متســـولون وعلى باب الله » و « أهل الكهف فى العصرالحديث » و « المليونير المتسول »

ويتردد فى الكتاب الكثير مما تتناولهالاقلام حديثا مثل « الدولةالعصرية » و « الثورة الدائمة » وهو فى كلالمشــكلات الدقيقة الشـائكة يقول رأيه صريحا ، واضحا ، لايدارى ولايجامل

١٠ قروش